

مِنَ الأدب النبوي

لفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ / إبراهيم الجبالي

عضو جماعة كبار العلماء
عميد كلية اللغة العربية (سابقا)

الجزء الأول

هدية مجلة الأزهر المجانية لشهر المحرم ١٤٢٧هـ



من الأدب النبوى

لفضيلة الأستاذ الكبير
إبراهيم الجبالى
عضو جماعة كبار العلماء
عميد كلية اللغة العربية (سابقاً)

(الجزء الأول)



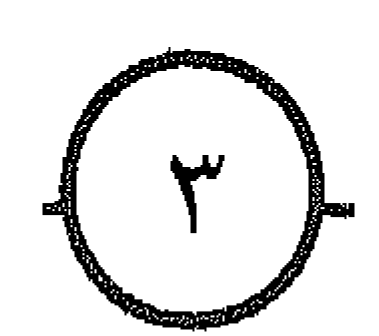
بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

العلاّمة إبراهيم الجبالى

بقلم الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومى

فوجئت بقارئ يكتب لجريدة الأهرام راجيًا أن يغيّر عنوان الشارع الذى يسكن فيه، فيطلق عليه اسم راحل مشهور من رجال الفنّ، وحجته أن الشارع معروف باسم من يُدْعَى إبراهيم الجبالى، وهو رجل غير معروف، ولا أدرى لماذا تسرع الأستاذ أحمد بهجت فنشر خطاب القارىء الغافل فيما يكتب تحت عنوان (صندوق الدنيا) ونحمد الله أن تواترت ردود القراء تستنكر ما قاله القارئ، وتعلن ان فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ إبراهيم الجبالى رحمه الله، كان من أعلام عصره، فهو عضو جهير بجماعة كبار العلماء بالأزهر الشريف،



وشيخ لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، وبها مدرّج فسيح يحمل اسمه الكريم، وعضو بمجلس الشيوخ المصرى، وصاحب المؤلفات الدسمة فى التفسير والحديث والتشريع الإسلامى! وقد اختير لتحرير بابى التفسير والحديث بمجلة الأزهر قرابة تسع سنوات صار فيها من أساتذة المجلّة الممتازين، هذا كله قد غفل عنه القارئ، ليؤثر بالشارع الذى يقطنه اسماً من الأسماء التى ترتزق بالغناء! وهكذا يغفل تاريخ الأفذاذ من النابهين.

أول لقــــاء:

كنت طالباً بكلية اللغة العربية، والأستاذ الجبالى عميدها، فبهرنا نحن الطلاب أن نجده يوالى زياراته للأساتذة فى قاعات المحاضرات، مستمعاً ومناقشاً، ومفيضاً فى الشرح والتحليل على نحو يدهش، لأن الأستاذ لم يكن يتخصص فى علم واحد، بل كانت علوم الدراسة جميعها موضع درايته، فهو يناقش فى دروس النحو والصرف،



والمنطق، والأصول، وفقه اللغة والتاريخ، والأدب، مناقشة مَنْ وقف على أسرار كل علم من هذه العلوم، وكان الأساتذة وهم حينئذ من أفاضل الباحثين يخشون مفاجاته ويعدون الدروس إعدادًا مثمراً يراعى شتى الاحتمالات، كما كانت عادته الطواف بلجان الامتحان الشفوى، ليستمع الأسئلة والإجابة معاً، وإذا كان الأستاذ الممتحن يدقق السؤال أمام العميد، فلا تسلْ عن موقف التلميذ، على أن الشيخ الجبالى كان عطوفاً رحيماً، يعرف أن الطالب مبتدئ، ولا يُكلف بما لا يطيق.

وكانت الدراسة دراسة بمفهومها الصحيح، إذ يؤخذ الغياب اليومّى للطلاب، ويحاسب كلّ طالب إذا تاخر بدون عذر، على أن الذى يقبل العذر ويبتّ فى أمره هو شيخ الكلية نفسه، ومن عادته أن يسال الطلاب اسئلة علمية، فإذا اجابوا سمح لهم بالتخلّف لأمد محدود، أمّا إذا أظهروا الجهالة فلن ياذن لهم بساعة واحدة، وقد اضطررت للتخلف

ذات يوم، فذهبتُ إلى مكتب الشيخ باسطاً العذر في طلب موجز، فقال لي: اجلس يا بنيّ، وكان معه جماعة من المدرسين، يصغون في اهتمام، وابتدرني قائلا: عليك بإعراب هذا البيت:

وكُلٌّ رفيقى كل رَحْلٍ وإنْ هُما

تعاطَى القنا قَوْمَاهُما أخَوان

فابتسمت! وقلت: يا سيدى ساعرب البيت كما تودّ، ولكننى انا ساسالك عن قائله، وعن مناسبته، وعن أحد العلماء الذى اخطأ فى إعرابه من أئمة النحو، فائتلق وجه الشيخ بالنور، وكانه يسمع بشرى سعيدة هبطت عليه فجاة، وقال: الله أكبر يا بنى، ما دمت تعرف مَنْ اخطأ فى إعرابه، فانت على علم بإعرابه، أما القائل، والمناسبة فانا شخصيا لا أعرف عنهما شيئًا، لقد جئت بابدة! لقد جئت بآبدة، فابتدرتُ اقول إن «كل» فى أول البيت مبتدأ، والخبر «أخوان» فى آخره، والقائل الفرزدق، والمناسبة وصف ذئب قابله فى الصحراء ودعاه

إلى طعامه، والذى أخطأ ابن هشام فى المغنى.

نهض الشيخ واقفا، ومدّ يده الكريمة محييا، فقبلّتها شاكرًا، وقال لى: خذ أجازة كما تشاء يا بنى، ولا تستأذن منى، ثم التفت إلى الأساتذة قائلا: نحن نحرض على حضور المتعلمين من الطلاب ليستفيدوا، أما الطالب العالم، فهو أستاذ يحضر ويغيب.

فى منزل الشيخ:

مضى أسبوعان، فقابلنى أستاذى الشيخ محمد الطنطاوى أستاذ النحو بالكلية، فقال لى: الشيخ الجبالى حدّثنى عنك مادحاً. فقلتُ له: إنك أديب تكتب فى مجلة الرسالة.

فقال لى أحبّ أن يزورنى فى منزلى فى أى يوم يريد بعد صلاة العشاء مباشرة.

فقلت للأستاذ: ومن أنا حتّى أشغل وقت الشيخ؟

قال: يا بنىّ، هو الذى اقترح، وطلب أن أبلّغك

فلا تبطىء.

ذهبت في اليوم نفسه إلى منزل الأستاذ، ودخلت حجرة الجلوس، لأجده جالسًا على سجادة طويلة، وقد لبس جلباباً أبيض، وبيده مسبحته، وعمامته البيضاء تنسجمُ مع الوجه واللّحية والأسنان، وكلها تاتلق بالنور، فقال لي: اجلس مَعِي على السجادة يا بنّي، إن الأرض تريحني، وهي أمّنا، ومكان السجود في الصلاة، لقد سمعتُ عنك من الأساتذة ما سرنّي، فرأيت أن أسمر معك.

قلتُ: بل أنا الذي حرصتُ على لقائك منذ قرأتُ لك، إذ لا تفوتني فَائِتَةٌ مما تكتب في مجلات الأزهر، وهدى الإسلام، والإيمان، وجريدة الأهرام أحياناً.

فقال الشيخ متواضعاً: ولعلّك ترضى.

قلتُ: وَلِمَ أحرص على تتبع آثارك إذا لم أكن راضيًا، وعندي سؤال أدّخره من قديم بشأنك، أفتأذن؟



قال على الرّحب.

قلت: لقد ذهبتَ إلى بغداد منذ بضع سنوات مندوباً عن الأزهر، لتلقى كلمة فى تابين أحد الكبار من رجال السياسة هناك، ونقلت الصحف حينئذ أنك في كلمتك لم تخّص الراحل بتابين خاص، بل تحدثت بما يشبه المحاضرة العلمية عن الموت والحياة! وعُدّ ذلك خروجاً عن المقام.

قال الشيخ: اعلمْ أنّى حين ذهبت مندوباً عن الأزهر، أعددت كلمة تخص الفقيد، ولكنّى فوجئت بسبعة خطباء قبلى، يعيدُ كل واحد ما قال سابقه، وفى كلمتى التى أعددتُها تكرار لما سمعت، ولم أرَ أحداً من هؤلاء بدأ الكلام باسم الله وحمده، فقلت أنت مندوب الأزهر فابدأ بحمد الله واسمه، وتحدث عن الموتِ وحقيقته التى تجعله انتقالاً من دار إلى دارٍ، ثم انطلقت أعلن أن الفقيد يحيا فى داره الثانية ليحصد ثمرة ما قدّمه فى الدار الأولى، وقد أجمع المتكلمون على تعداد محاسنه، فهو إذن

يتلقى جزاءَ هذه المحاسن حياً عند ربّه، وأن على رجال السياسة أن يعلموا أنهم كغيرهم سيلاقون هذا المصير، ولابد أن يُحسنوا العمل، لأن اللهِ لا يضيع أجر من أحسن عمِلا، ثم استشهدت بطائفة من الآيات والأحاديث، داعياً للفقيد بالرحمة، وموجّهاً السامعين إلى استحضار ما انتهى إليه الراحل من مآل، هذا خلاصة ما كان، وأذكر أن بعض زملائى فى الرحلة قال لى: لقد أشعرتنا حقا باننا فى حفلة تأبين، وأنك تتحدّث واعظاً باسم الأزهر الشريف.

قلت لقد استرحتُ لما سمعت، وأستطرد فأسأل سؤالاً آخَرَ؟ لماذا اخترت سور النور، والحجرات، والرعد، ولقمان، مجالا لتفسير كتاب الله بمجلة الأزهر، ولم تبدأ بالفاتحة والبقرة كما فعل صاحب المنار؟

قال الشيخ: وما تشاءون إلاّ أن يشاء الله، لقد بدأت بتفسير سورة النور، لأن سائلا تقدّم لمشيخة

الأزهر راجيا تفسير قول الله عز وجل:

﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾

[النور/٣٥]

فحولت المشيخة إليّ السؤال طالبة أن أجيب عنه على صفحات المجلة، وحين تأملت الآية الكريمة ناظراً إلى ما قبلها وما بعدها من الآيات وجدت أن السورة الشريفة عقد متناسق الحبات، وأن الصلات المتشابكة بين الآيات تخفى على الكثيرين من المفسرين، بله القراء وعندى اعتقاد بهذا التلاحم العضوى، لأن القرآن رتب بما شاءه الوحى المنزل، فكان جبريل يجتمع بسيدنا رسول الله ليحدّد مكان كل آية من السورة، ولن يكون هذا التحديد عفويًا كما اتفق، بل لابد من نظام يجمع هذا المتفرق فى تسلسل منسجم، لذلك رأيت أن أبدأ بتفسير السورة جميعها، موضحا أثر ترتيب الآيات فى التئام الوحدة الجامعة، وقد يخالفنى بعض العلماء، ولكنى اتحدث عما أطمئن إلى

سلامته، وهكذا بدأت بتفسير سورة النور، ثم جاء سؤال يسأل عن معنى: قول الله فى سورة الرعد

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾

(الرعد/١١)

وأحالته المشيخة إلىّ، ففسرت السورة جميعها مستعيناً بتأييد الله، أما سورة الحجرات فهى سورة الأخلاق فى كتاب الله، وتفسيرها مما يقوى الفضائل الإنسانية، فاتجهت إليها بدون سؤال، بل بوحى من خاطرى الخاص، وكذلك اتجهت إلى تفسير سورة لقمان، وقد أضطر إلى تفسير آيات مقتطعة من سور كريمة لظروف عاجلة يتطلبها السائل المتسرع، بدون أن أغفل عن إيجاد الرابط بين السابق واللاحق، والله هو الموفق.

وما كاد الشيخ يصل إلى هذا المقطع، حتى جاء من نبهه إلى زوار قدموا من بلدة الرحمانية - موطنه الأصلى بالبحيرة - فخرج لاستقبالهم، وسرعان ما رجع ليقول لى: إننى سأتغذى معه



سمكاً في الغد، لأن أقاربه قد أحضروا السمك الكثير، وهو يطلب حضورى بعد صلاة العصر مباشرة، لأنه لا يتناول الطعام إلا مرتين فى اليوم، الأولى فى الصباح، والثانية بعد العصر، وعلى هذا درج منذ عشرين عاماً! وحاولت الاعتذار فلم أفلح، وانصرفت على ميعاد قريب.

مرة أخرى:

رجعت إلى منزل الأستاذ فشاهدت من مروءته وبشاشته ما ملأنى إعجابا بتواضعه، ثم اتجهنا بعد الغداء إلى مجلس كمجلس الأمس، حيث جلس الأستاذ على السجادة بجوارى، وابتدأ يقول، إنه فكر بعد خروجي فى رحلته إلى بغداد، فتذكر رحلتين غاليتين قام بهما إلى مكانين قاصيين، أولهما مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وثانيهما دولة الهند مندوباً عن الأزهر مع بعض الأجلاء من العلماء، فقلت: هى ثمرات دانية القطوف، وأنا على شوق زائد لاستماع الطرائف عن هاتين الرحليتن.

فقال الأستاذ: هى طرائف حقا، فقد جاءت رحلتى إلى الحجاز فى زمن كثر فيه الجدل بين علماء مصر. وعلماء الأرض المقدسة عما يسمى بالتوسل، وتطرف كل فريق فى اتجاهه، وفى المتكلمين من أولئك وهؤلاء لمن يتمسكون بالنظر الجزئى، دون شمول متسع، وهم جميعاً علماء كرام يجاهدون فى سبيل الله، ويسعون لإعلاء الإسلام، وقد عرف مكانى بعض علماء الحرم المكى، فسارع أحدهم لنقاشى، فاصغيت لكل ما قال، ثم قلت له: أنا عاتب عليكم، كما أعتب على من يناقشكم من علماء مصر، لأن المسائل الدينية يجب أن تناقش فى جو أخوى تضيئه بشاشة الإسلام، ولا يزال علماء الإسلام يتفقون ويختلفون منذ جدت أحوال معيشية تتطلب الحكم الشرعى قياساً واستنباطاً، ورأينا التاريخ يسجل على أصحاب التؤدة والإنصاف أنهم يسلكون سبيل المتقين، كما رأيناه يسجل على من تورطوا فى اللحاج

والحكم بالتكفير أنهم خرجوا عن الصراط السوى، وأنا أرجو أن يذكر كل مناقش رأيه مشفوعاً بالدليل، فإذا تعرض إلى رأى مناظره نقض دليله فى أدب مهذب، وستضيق شقة الخلاف متى صفت الضمائر وسلمت النيات! وكان كلامى موضع اهتمام صاحبى، فشكرنى، وجمعنى بصفوة من رفاقه، فاعدت ما قلت وانقشع غيم ثقيل.

أما الرحلة الثانية إلى الهند، فقد ظللت بها مائة يوم، حيث كنت رئيساً للبعثة الأزهرية التى كانت استجابة لدعوة الشاعر الكبير محمد إقبال فيلسوف الهند وشاعر الإسلام، إذ لمس انجذاب كثير من المنبوذين إلى اعتناق الإسلام، وقد خوفهم الهنادك بأمور لصقوها بالإسلام زوراً، فرأى الشاعر الكبير أن يبعث الأزهر بعض علمائه لدراسة أحوال المنبوذين من ناحية، والاتصال بمشكلات المسلمين من ناحية ثانية، مع إلقاء المحاضرات الكاشفة عن تعاليم الإسلام،

والمشخصة لأدواء المسلمين فى هذه البلاد، وقد استجاب الإمام المراغى لهذا الاقتراح، ووافق المسئولون على إرسال البعثة، وكان معى الأستاذان الجليلان عبدالوهاب النجار، ومحمد احمد العدوى، فقمنا بزيارة اكثر من خمسين مدرسة وجامعة، وعقدنا جلسات سياسية ودينية مع كبار الزعماء من رجالات الهند المعدودين، وألقينا اكثر من اربعين محاضرة، وكنا نستقبل استقبال الملوك، فالأفواج تتزاحم، والهتافات تعلو، وعقود الزهر تهدى إلينا فنلبسها، وهى التحية الهندية لكبار الزوار، وقد امتد النقاش فى جلسات طويلة مع كبار المفكرين من أمثال الزعيم الكبير محمد على جناح، والدكتور ذاكر حسين، والأستاذ الفيلسوف محمد إقبال، وهذا الشاعر الفيلسوف كان فى مرضه الأخير، وفى صوته عقدة تمنعه من الكلام، ولكنه تحامل على نفسه، وأصر على تكرار اللقاء، وكنا نشفق عليه، ولكن حماسته الإسلامية



كانت تنتصر على ضعفه فى ساعات الاجتماع، وقد شرح لنا حقائق كثيرة كنا نجهلها من ناحية الإنجليز الذين كانوا يؤيدون الهندوك تاييداً تاماً، ويعينونهم فى الوظائف الإدارية الهامة ليكونوا عامل حرب على المسلمين، إذ أن الاستعمار لم يكن يخشى من الهنادكة معشار ما كان يحذره من مقاومة المسلمين، وقد أرجف المغرضون كذباً بان المسلمين يعاونون الاستعمار، وهذا ما تنهض الدلائل بتكذيبه، وقد عرفنا عن غاندى ونهرو اموراً منكرة لم نكن ندريها، لأن الجرائد المصرية لم تكن تذيع عنهما إلا المحامد، أما العداء البارز للمسلمين فلم نقرأ عنه فى البلاد العربية شيئا، وهو مما يضج منه المسلمون. هناك، وقد صلينا الجمع فى المساجد الكبيرة، وخطبنا المسلمين، ووضحنا مبادىء الإسلام قدر مانستطيع، وكانت مناسبة سعيدة يوم عيد الفطر، إذ قمنا بالخطبة والصلاة فى اكبر مساجد (بومباى) وعندى

مـذكـرات عن هذه الرحلـة ارجـو ان تسـعـف الأيام بتبييضها وطبعها.

قلـت: إن طبـع هذه المذكـرات ضـــروري لتــسلط الضـوء علـى ظلمـات تحـيط بـنا فى مـصر بالنسـبـة لإخواننا هناك، فقال الشيخ: أرجو أن تسعف الأيام بما تريد، وقبل أن انصرف اكد عليّ الشيخ ان اكثر من زيارته، لأنه يسعد بترداد ذكرياته معى، وقال مبتسماً: معك مفتاح دقيق يثير ذكرياتى، فلا تمسكه أمداً بعيداً، ثم علمت أن الرجل قد مرض، فلم أشا أن أرهقه بما قد يتعب من الحديث، فقطعت الزيارة مكرهاً غير مختار..

د. محمد رجب البيومى



روى مسلم عن حنظلة الأسيدى قال: (كنا عند رسول الله ﷺ فوعظنا فذكر النار، قال: ثم جئت إلى البيت فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة، قال: فخرجت فلقيت أبابكر فذكرت ذلك له فقال: وأنا قد فعلت مثل ما تذكر، فلقينا رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله نافق حنظلة، فقال: مه، فحدثته بالحديث، فقال أبوبكر: وأنا قد فعلت مثل ما فعل، فقال: يا حنظلة ساعة وساعة ولو كانت تكون قلوبكم كما تكون عند الذكر لصافحتكم الملائكة حتى تسلم عليكم فى الطرق) وفى رواية: (قلت يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنه رأى عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرا، فقال رسول الله ﷺ: والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة - ثلاث مرات).

شرح المفردات:

نافق: يريد بها تغير عما عهد نفسه عليه وهو عند رسول الله ﷺ. دفعه الحذر الشديد والاحتياط لنفسه أن يتهمها فى القليل حتى يطمئن على السلامة وقوله: «مه» إما بمعنى الاستفهام فهى ما لحقها هاء السكت، وإما بمعنى الأمر بالكف والزجر عما فرط منه تهويلا لهذه التهمة الشنيعة التى اتهم بها نفسه. وقوله «عافسنا» بمعنى مارسنا وعالجنا أشغالنا وحظوظنا كما يصرح به قوله فى الرواية الأخرى «فضاحكت الصبيان ولاعبت المرأة». والضيعات: جمع ضيعة وهى ما فيه معاش الرجل من مال وحرفة، كأنه إذا ترك تعهده ضاع. وتطلق على الأرض المغلة والعقار.

لقد كلف الله العباد ما يطيقون رحمة منه وفضلا، ورفع عنهم الإصر والعنت، وجاءت الشريعة سمحة سهلة، وجاء الإرشاد إلى اتباع الرفق فى كل شىء، وورد: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق فإن المنبتّ(١) لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى، ولن يشادّ الدين أحد إلا غلبه، وقليل يبقى خير من كثير منقطع. وجاء قوله ﷺ لمن كان يصوم النهار دائما ويقوم الليل: «قم ونم وصم وأفطر فإن

(١) المنبت: هو الذى انقطع عن سفره وعطبت راحلته لتحميلها فوق طاقتها.

لبدنك عليك حقا وإن لزوجك عليك حقا». لم يكن كل هذا ولا شيء منه للترغيب عن العبادة والتزهيد فيها، كيف والعبادة هي طريق السعادة، وهي أهم ما ينبغي للعاقل أن يصرف وقته فيه، وإنما ذلك كله للمحافظة على العبادة، وحذرا من أن تسأمها النفس فتنقطع عنها بتاتا، كما قيل: «أخاف عليكم إن حملتكم عليه جملة تركتموه جملة». فكانت الحكمة المأمور بمراعاتها في الدعوة إلى الله هي في التوسط وعدم الإفراط، حتى تكون النفس دائمة الإقبال على ربها، محببا إليها السعي لمرضاته والزلفى إليه.

ولقد تضمّن هذا الحديث الشريف أمورا ذات بال، فقد صور لنا ما كان الصحابة رضي الله عنهم يجدونه من أنفسهم حين كانوا يجتمعون به ﷺ ليعظهم، فكان الأمر يبلغ بهم إلى درجة أنهم كأنهم يرون ما يوعظون به رأي العين، وهذا شأن كمال الاستحضار وإقبال النفس على التفهم والاتعاظ، مع ما يحيط بذلك من سطوع نور النبوة على قلوبهم وتجلي القوة الروحانية في التأثير في نفوسهم، ومن أجدر بذلك منه ﷺ ومنهم رضي الله عنه. ووصف لنا حالهم البشرية على صورتها الحقيقية التي لا مراء فيها ولا مواربة، يصورون لنا ما هم عليه مما تتسع دائرته لطوائف المكلفين وعامتهم، لا أنهم مستغرقون في الشهوات، ولا فانون في الذكر والفكر كل

أوقاتهم، بل يمارسون معايشهم، ويلاعبون أطفالهم، ويؤانسون أسرهم، مما يقوم عليه نظام الحياة المعتادة التى لا إرهاق فيها ولا إعنات، ويصورون لنا مزيد حذرهم ورهبهم من ربهم، وشدة يقظتهم فى مراقبة نفوسهم، حتى إذا لحقهم شك فى استقامتهم على الطريقة المثلى فزعوا إليه عليه الصلاة والسلام يستفتونه فيما هم فيه، متهيئين لقبول ما يفتيهم به إن سهلا وإن صعبا. وهذا هو معنى الاستسلام التام وهو قول المؤمن: أسلمت وجهى لله رب العالمين.

ويبين لنا ما يتجلى فى الشريعة الغراء من رأفة وسماحة، وأن من لم يطق درجةً من نوافل العبادة فلا عليه أن يقف عند ما يطيق، ما لم يكن تفريطا فى واجب، أو انغماسا فى إثم. وقد ورد «اتق المحارم تكن أعبد الناس». وكذلك جاء فى الحديث ما يرجو لمن يداوم الذكر والفكر وحضور القلب، كما يكون حالهم وهم عند رسول الله ﷺ، فقد رتب عليه فى الحديث الشريف ما يشوق إليه ويحفز الهمم للسير نحوه، وهو صفاء روحه وطهارة قلبه، واتصاله بمن أنعم الله عليهم من عباد الله المقربين، حتى تتم المناسبة بينه وبين الملائكة، فتصافحه الملائكة، وتسلم عليه فى طرقه وفى فرشه.

ومعنى ذلك أن الكدورة البشرية والظلمات المادية ترقّ حجبها عن نفسه، فتصفو وتتغلب روحانيتها على ماديتها، فيكون فيها الاقتدار على مشارفة هذه المنزلة البعيدة عن العامة: منزلة الروحانية الصافية، والملكية الطاهرة، فإن الإنسان فيه الشبه من العالمين المحيطين به، ففيه شبه بالملائكة فى نفسه الطاهرة وروحه الخيرة، وفيه شبه من الشياطين ومن البهائم بما ركب فيه من استعداد للشرور والآثام، وانغماس فى الرذائل والشهوات، فأى الأمرين غلب عليه انجذب نحوه وتجلى فيه.

واستوضح ذلك إن شئت بمشاهدة تلك الفئات التى غلبت عليها شقوتها حتى التحقت بالشياطين فلا يهدأ لها روع ولا تطمئن لها نفس حتى يكون منها إفساد بنميمة أو فتن أو تدبير مكايد، حتى يصبح المرء منهم ولا لذة له إلا بأن يؤذى مخلوقا، أفليس هذا من جند الشيطان الذى أخلص له الطاعة وتم بينه وبينه التفاهم والتخاطب؟ وكذلك أولئك الذين انغمسوا فى المآكل والمشارب، حتى يصبح أحدهم ولا همّ له إلا أن يأكل ويملأ فراغ بطنه، ولا ترجو منه أكثر من أن تستخدم جسمه فى الشاق من الأعمال كما تستخدم البهائم سواء بسواء. أليس هذا قد التحق بعالم البهائم واندرج فى

صفوفها حتى كأنها صافحته وصافحها وسالمته وسالمها ؟ ولم لا تقول قد يلتحق بعض الأناسى بالسباع فيتخلق بخلقها ويتربى معها فتأنس به ويأنس بها ويكون معها فى مستوى واحد . فإذا كنا نشاهد هذا فيما بين الإنسان وبين البهائم، وفيما بين الإنسان وبين السباع، وفيما بين الإنسان وبين الشياطين، وكل ذلك من غلبة إحدى طبائع الإنسان عليه، حتى غمطت باقى طبائعه، فما لنا لا ندركه فيما تتغلب عليه طبيعة الخير والنفس الملكية العالية، فيلتحق بمصاف الملائكة، فتصافحه الملائكة ويصافحها، وتأنس به ويأنس بها .

وبعد : فانظر إلى هذه الروعة فى التعليم والإرشاد، وما تجلى فيها من باهر الحكمة وعظيم السداد، فقد جاء حنظلة وهو منزعج على نفسه خائف مما أحسه من تغيرها عما كانت عليه وهو عند رسول الله ﷺ ، وخوفه أن يكون ذلك من صفات النفاق التى حكاها عز وجل عن المنافقين فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ﴾

البقرة/ ١٤

والمنتظر فى الجواب حينئذ إنما هو أن يطمئنه بأن لا بأس عليه فى النسيان والاشتغال بما لا غنى له عنه من معاش ونحوه. ولكنه عليه السلام لم يقتصر له على ذلك، بل شرح له الفوائد التى تترتب على دوام الذكر والفكر وشغل أعظم قسط من الوقت بالعبادة فبين له أن من داوم على ذلك وصل من درجة القدسية وعلو الروح وصفاء النفس منزلة تدنيه من الملائكة وتناسب بينه وبينهم وتجعلهم يصافحونه فى الطرقات - غير أن هذا على عظم فضله ليس مكلفا به، وإنما هو باب من الفضل مفتوح، ومنهل سائغ لمن يرده فيغترف منه ما يقدر عليه. أما الذى لا يسع العبد أن يركن إليه، فهو النسيان جملة، والإعراض الكلى وانصراف نفس المؤمن عن ربه بتاتا فهذا قوله: «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة» ويكرر ذلك ثلاثا لتثبيته فى نفسه وتنمية غرسه.

فهذا هو نور النبوة يتجلى على نفوس الصحابة رضى الله عنهم كلما استعدت لإشراقه عليها، فتكمل تربيتهم، ويصلون بالتدريج إلى ما أعد لهم.

نسأل الله - تعالى - أن يمدنا بالتوفيق، ويهدينا إلى خير طريق. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



- ٢ -

قال رسول الله ﷺ : (ثلاث من كن فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكونَ اللهُ ورسوله أحب إليه ممّا سواهما، وأن يُحبَّ المرءَ لا يحبُّه إلا لله، وأن يكرَه أن يَعودَ في الكفر كما يكرهُ أن يُلقى في النار) رواه البخارى ومسلم وغيرهما.

الإيمان : هو التصديق الجازم بما جاء به رسول اللّه ﷺ مبلغاً عن ربه مصحوباً بإذعان النفس وقبولها وطمأنينتها له وعدم إبائها مكابرة أو عناداً واستكبارا. وقد يوجد الجزم ويرتفع عن النفس الريب والشك ولكن تبقى المكابرة والإباء والعناد وعدم الإذعان، فمثل هذا لا يعد إيمانا. ولكن المؤمن حقاً هو من أذعنت نفسه واطمأن قلبه وانشرح صدره ورأى في ذلك نعمة كبرى من اللّه عليه يغتبط بنيلها ويحمد اللّه على منته بها ويقول بلسان حاله : الحمد للّه على نعمة الإيمان. ولكل نعمة لذة تقوى بحسب تنبه النفس وشعورها بعظم الانتفاع بها، ويزداد الشكر عليها وتقديرها بحسب ما يدرك من نالها من آثارها. فكم ترى في الناس من آمن في يسر ورخاء وهو غافل عن نعمة الأمن واليسار. وإن المتمتعين بنعمة الصحة مع غفلتهم عن الشعور بها لأكثر من أن يحصوا، حتى قيل : الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى. فالنعم قد تصادق المرء ويكون وافر الحظ منها وهو مع ذلك لا يتذوقها ولا يحسها لأنه منصرف عن التفكير فيها والالتفات إليها، وإنما يوجهه إليها ويشعره بها حرصُه على اجتناء ثمرها وقيامه بواجب شكرها.

ومن أجلّ نعم اللّه على العبد نعمة الإيمان. ولقد ترى

الكثير ممن آمن وجزم واستيقن وخلص من الشك والريب وسلم من آفة العناد والمكابرة ، ولم يبتل بكراهية ما أنعم اللّه به عليه من نعمة الإيمان ، تراه مع هذا مستغرقاً فى غفلته ، منصرفاً عن أن يقدر نعمته حق قدرها ، مقصراً فى القيام بواجب شكرها . فمثل هذا مؤمن ولا شك ، إلا أنه لم يذق لإيمانه طعماً ، ولم يدرك له لذة . وكيف يدرك لذة لم يلتفت إليها ولم يتنبه لعظيم قدرها ولم يشعر بغبطة لإحرازها ، ومثله مثل من نشأ فى بحبوحة من العيش ولم يلتفت إلى حال الفقدان والعدم ، فقلما تجده قائماً بشكر نعمة السعة ، إلا أن يزعجه تعرضها للزوال ، فعندئذ يتنبه لما هو معرض له من أخطر الأحوال . كذلك تجد هذا قلما يتنبه للإيمان ونعمته ، إلا إذا كان عرضة للمهاجمة فيه ومحاولة انتزاعه منه ، فتتنبه حواسه ويستيقظ من سباته .

ولقد جاء هذا الحديث ينير لنا الطريق الذى به نتعرف مقدار هذه النعمة العظمى : نعمة السعادة الدائمة والنعيم المقيم ، نعمة الإيمان الضامنة لسعادة الدارين ، لنجنى ثمرها ونوفيها شكرها ، فأرشدنا إلى ما به نمتحن نفوسها ، فإن وجدنا فيها أمارة الإيمان حمدنا اللّه وزدناها نمواً ، وإن وجدنا النفوس خلوا منها جاهدناها حتى نحليها بها ونروضها

عليها، وذلك من أعظم وسائل تربية النفوس ومراقبتها ليكمل نقصها وتحلى بما فقدت من فضائل، فقال عليه أفضل الصلاة والتسليم: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان» والمراد ثلاث خصال، وهى المبينة فيما يأتي. وستعرف مقدارها من الدين ليتجلى لك أن هذا الحديث أصل عظيم جامع لأبواب الخير. وحلاوة الإيمان هو ما يتذوقه المؤمن المطمئن النفس من لذة هذه النعمة التى أنعم اللّه بها عليه فهيأه بها لإحراز سعادتى الدنيا والآخرة. أجل: سعادة الدنيا بإرشاده إلى ما فيه صلاح معيشته وتهذيب نفسه وتنظيم حياته الخاصة والعامة. وناهيك بما يفيضه الإيمان على صاحبه من نعمة الصبر على البلاء، والشكر على السراء، والنظر إلى كل ما يصادفه المرء فى حياته بأنه صادر عن الحكيم العليم، فيشهد فيه ما ينثلج له صدره ويطمئن له فؤاده، فلا يفتأ يشهد من بديع الحكم ما يربو على المتنقل فى بستان بين طيب الرياحين وبديع الأزاهير وشهي الثمار. هذا ما يجده المؤمن من ثمرة إيمانه فى الدنيا وما عند اللّه خير وأبقى. حلاوة الإيمان يتذوقها المؤمن الصادق فى إيمانه فى كل مظهر من مظاهر حياته من سراء وضراء، فهو فى كل شيء يشهد أثر اللطيف الخبير، فيستفيد بإيمانه لذة فى الدنيا وأجراً

عظيماً في الآخر.

الأولى ـ أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما:

الحب ميل النفس إلى ما تجد فيه لذة أو منفعة أو موافقة طبع. وأسبابه متنوعة، فقد يحب المرء الشيء لأنه يعود عليه بالنفع، أو يحب الشخص لأنه يسديه الإحسان، وقد يحب الإنسان الشيء لما فيه من كمال ذات أو جمال صفات أو حسن اتساق. ولقد ذكر الغزالي رحمه الله للحب خمسة أسباب وهي:

(١) حب الإنسان نفسه، ووجوده، ودوام وجوده، وكماله، وذلك ضروري.

(٢) حب الإنسان من أحسن إليه وانتفع منه منفعة ما، وهو ما يشهد به كل إنسان. جبلت النفوس على حب من أحسن إليها.

(٣) وحب المحسن في ذاته لنفس الإحسان وإن لم يصل أثره إلى الإنسان، فإنا إذا سمعنا بشخص له إحسان وبر، وقد بسط خيره وكثر منه النفع للعباد، وجدنا من نفوسنا الميل إليه، وعلقت محبته بالقلوب، وإن كنا في غنى عنه وعن إحسانه.

(٤) وحب الجمال والحسن فى ذاته بقطع النظر عن أن يعود علينا منه لذة أو منفعة، والجمال يتفاوت إلى أنواع ومراتب كثيرة لا تنحصر: فمنه حسن كحسن الأزهار والألوان الجميلة والأشكال الهندسية المتقنة والخط الحسن والحيوانات المتناسبة الأعضاء أو الطيور الزاهية الألوان وأمثال ذلك، ومنه معنوى كحسن الأخلاق الكاملة والصفات الفاضلة، كالعلم والذكاء والشجاعة والعدل وضبط النفس مع القدرة وهلم جرا. فكم ترى لبعض المشهورين بالشجاعة من محبة في نفوس العامة إلى درجة التفانى فى التعصب لتفضيلهم والتقاتل فى سبيل الذب عن مكانتهم، وما ذلك عن رؤية لذواتهم أو صلة بينهم وبينهم، وإنما هو الولوع بالصفة الفاضلة التى تعتبر مثلاً أعلى فى الجمال النفسى عند أولئك الأقوام، حتى لقد يكون صاحب الصفة شخصاً خيالياً وتفاض عليه صفات الجمال مضمومة بعضها إلى بعض، ويذكر من شواهدها ما يعزز وجودها وكمالها فيه. فتعلق محبته بالقلوب. فهذا من حب الجمال المعنوى حيث لا إحسان فيه لك ولا لغيرك، ولا فائدة منه مرجوة للمحب تعود إليه أو إلى أحد ممن يتصل به.

(٥) وحب الإنسان لمن بينه وبينه مناسبة وألفة ولو لم

تكن تلك الأسباب السابقة أو شيء منها موجوداً، وذلك كما ورد في الحديث: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف».

وإذا نظرنا إلى هذه الأسباب وجدناها موجبة حب المؤمن العارف لربه حباً لا يشاركه فيه محبوب. فأما السبب الأول وهو حب الإنسان لنفسه ووجوده وكماله وبقائه فهو ظاهر التوصيل إلى حب الخالق الموجد المكمل المبقي. وهل يتصور امرؤ يحب أن يعيش ولا يحب ما به قوام معيشته وما لا يحيا إلا به كقوته وماله؟ وهل يمنح الوجود والكمال والبقاء إلا اللّه الموجد؟ وكذلك السبب الثاني في غاية الظهور، فلا محسن على الحقيقة إلا اللّه تعالى، وما يتصور من إحسان غيره فهو إحسان مجازى لا يزيد في مجارى العادات على إحسان خازن مال الأمير على شخص بأمر الأمير. فإذا نظرت إلى ملك الأمير لماله بالنسبة إلى مالك الأمر كله فإنه أضعف من نسبة خازن المال إلى الأمير، فالأمير مسخر في عطاياه للدواعي التي سلطها اللّه عليه لا يستطيع منها فكاكاً، كما أن الخازن لا يقدر على مخالفة أمر أميره، بل تسخير الأمير لدواعيه أقوى من سلطان الأمير على الخازن. وفوق هذا فالمحسن من الناس لا يحسن إلا في مقابلة عوض: من انتظار

أجر وثواب، أو إحراز محمدة وثناء، أو اشتهار اسم وبعد صيت، أو ما ماثل ذلك من دواعي الإحسان. وأما الإحسان الإلهي فإنه إحسان وفضل محض لا يعود منه إلى المحسن فائدة ولا له فيه غرض، فقد تنزه جل شأنه عن الأغراض.

هذا في الإحسان إلى المحب خاصة. أما الإحسان المطلق وهو السبب الثالث، فأي محسن يتصوره الوهم يمكن أن ينسب إحسانه إلى الجود الإلهي المطلق، كيف وكل ما في الوجود هبة من هباته وجزء من نفحاته؟ لا ينكر ذلك بر ولا فاجر، ونعم الله على عباده لا تحصى

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[النحل / ١٨]

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾

[النحل / ٥٣]

أما الجمال والكمال في الذات والصفات والتنزه التام عن سمات النقص، فمن خواص الذات الأقدس، المتصف بكل كمال، المنزه عن كل نقصان. فالحب للكمال والجمال متى نسب إليه فقد ضاع كل حب دونه. بقي السبب الخامس وهو الحب للمناسبة والمشاكلة، ففي هذا النوع خفاء يحتاج إلى

كشف وإيضاح، فإن مشاكلة المخلوق للخالق مستحيلة بالضرورة والبرهان، فما يتحقق منها فى هذا الباب يحتاج إلى تلطف فى الفهم وأناة فى التعقل.

لقد اتصف جل شأنه بصفات تفرد بها وكان لها تعلقات وآثار دعا المؤمنين إلى التأسى به فيها، كالرحمة والرأفة والإحسان والعطف والبر. وقد جاء: تخلقوا بأخلاق اللّه. فالمؤمن الذى وفقه اللّه للتحلى بهذه المكارم والأخلاق الفاضلة يجد نفسه مظهراً لبعض الصفات التى يمن اللّه بها على عباده ليتخلقوا بأخلاقه؛ فإذا كان مظهراً للرحمة أو للعدالة أو للبر والخير وذكر الرحمة الإلهية والعدل الإلهى، فلا شك أنه يحس من نفسه اقتراباً لتلك الصفات الكمالية التى ينعم بها الخالق على المخلوق، وتكون من باب التأسى والاقتداء؛ وإن كانت المسافة شاسعة بين المقامين، فيحس حينئذ بالزلفى التى تدفعه إلى المحبة والتعلق الروحانى. وأول باب لذلك التقرب بالنوافل، ومن هذا جاء فى الحديث القدسى: «لا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به». والمعنى واللّه أعلم: انه فى كل ما ينظر ويسمع ويخطر له من خطرات يراعى معنى التقرب إلى الله وتحرى مرضاته، وكفى

بهذا تصويراً فى معنى الألفة بل فى تقريب أسباب المحبة من الأفهام، وإلا فالمحبة وجدان تعالى عن أن يناله الشرح أو يكفى فيه الوصف.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

وإنما أطنبنا فى هذا المقام لأن بعض الناظرين فسَّر المحبة بالطاعة والامتثال فحسب وقال: إن المحبة لا تتصور إلا بين الأجناس المتآلفة أو التى يتصور فيها التآلف، وذلك محال بين الخالق والمخلوق فتحمل على لازمها وهو الطاعة. وقد علمت ما يزيل هذه الشبهة وأن المحبة لا تقتصر على ذلك، إلا إن نظر إلى نوع منها هى المحبة الشهوية كمحبة الحيوان للحيوان. وليت شعرى كيف يفسر هؤلاء محبة الانسان لمظاهر الكون المنسجمة أو للأزاهير والرياحين أو للبلاغة والبراعة أو للأشكال الهندسية المتقنة وهكذا مما لا ينحصر.

نعم ثمرة المحبة الإلهية الطاعة والامتثال، ولكن فرق بين طاعة عن حب وطاعة عن رغبة أو رهبة. روى أن عيسى - عليه السلام - مر بقوم يعبدون خشية النار أو رجاء الجنة فقال: إنكم تخشون مخلوقاً وترجون مخلوقا. ومر بآخرين قد نحلت أجسامهم من العبادة وقالوا: نعبده حباً له وتعظيماً

لجلاله، فقال: أنتم أولياء اللّه حقاً، معكم أمرت أن أجلس. ويقربه من الذهن فى معتاد الناس أن يقول الرجل الذى عرف من آثار ملكه وعدله وحسن تقديره للأمور ونحو ذلك من الصفات الحميدة: إنى أخدم ملكى لا لمجرد أن القانون يوجب ذلك، بل لأن هذا الملك أهل لأن يحب مستحق لأن يخدم، وإن من عرف فيه ما أعرف من صفات الكمال يجد لذته فى أن يخلص إليه ويتقرب منه.

هذا فى أصل الحب وهو أمر يزداد وينمو بقوة الإيمان والطاعات حتى يكون ماثلاً دائماً أمام المحب، فيصل عند بعض المقربين إلى أن تكون قلوبهم دائماً مشغولة بذكره متلذذة بتحميده وتمجيده والزلفى إليه. نسأل اللّه أن يوفقنا لمرضاته.

وأما حب الرسول ﷺ فهو من حب اللّه، فإنه ليس أحد بعد اللّه أمنّ علينا ممن اصطفاه لتبليغ هداه وتوصيل رحمته إلينا، وبه أنقذنا من الظلمات إلى النور وأعدّنا للسعادة الدائمة والنعيم المقيم، وقال مخاطباً له:



[الأنبياء/١٠٧]

وكون الله ورسوله أحب إلى المؤمن مما سواهما، أى من أهله وولده ووالده والناس أجمعين، بل أحب إليه من نفسه. وليس فى هذا تعدّ ولا غرابة، فالمؤمن هو الذى يفتدى نبيه بنفسه، حتى لو خير فى الضرر يصيبه أو يصيب نبيه فلا يرغب بنفسه عن نفس نبيه، ففى افتداء نبيه بنفسه تقديم حياة دائمة وسعادة خالدة على متاع زائل وعرض فان. وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور.

الخصلة الثانية ـ أن يحب المرأ لا يحبه إلا لله:

وهذا فرع عن الخصلة الأولى وهى محبته للّه، فالذى يحب اللّه حباً صادقاً إذا أحب امرءاً فإنما يحبه لما يراه منه من طاعة ربه، وليس معنى هذا أن من أحب إنساناً لبعض أغراض نفسية يخرج بذلك عن الإيمان، وإنما المعنى أن الذى يعتبر ثمرة من ثمار الإيمان ودليلاً على أن الشخص قد ذاق حلاوة الإيمان، أن يكون منه حب فى اللّه وبغض فى اللّه، أى أن يوجد منه حب لا يكون الدافع إليه غرضاً نفسياً ولا غاية شهوية وإنما يكون داعيه هو قيام المحبوب بطاعة اللّه، وأنه من المقربين إلى اللّه؛ وكذلك داعية البغض تلبس المبغوض بمعصية اللّه، فهذا هو الذى يعتبر علامة ذوق المؤمن حلاوة الإيمان؛ فلا ينافى أن يوجد معه حب لشخص آخر لغاية من غايات

هذه الحياة الدنيا ، فإنه فرق بين أن يقال : أن يحب المرء لا يحبه إلا للّه وبين أن يقال : ألا يحب أحداً إلا للّه ولا يبغض أحداً إلا للّه .

الخصلة الثالثة ـ أن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار:

وهى من الأمارات الظاهرة لرسوخ الإيمان فى النفوس بل لحصوله واستقراره؛ وكيف يكون مؤمناً باللّه ورسوله من لم ير أن إيمانه هو وحده المنجى من النار؟ وكيف يؤمن باللّه ورسوله من لا يصدق بقوله تعالى:

﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

[البقرة/ ٢١٧]

فالمؤمن حقاً هو من لا يعزب عنه أو من لا يشك فى أنه إن عاد إلى الكفر بعد إذ أنقذه اللّه منه كان لا محالة ملقى فى النار نار الآخرة ، فهو يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يلقى فى النار ويصح أن يراد نار الدنيا ، والتشبيه باعتبار أنها أشد ما يخشاه الإنسان من الألم

المحسوس، ولنار الآخرة أشد وأبقى.

وكما يكره المؤمن لنفسه أن يلقى فى النار يكره لأخيه المؤمن صغيراً كان أو كبيراً ولولده ولكل من له به سبب أو صلة نسب أن يلقى فى النار. فمن ذا الذى يرى إنساناً ما ولو كان لا يعرفه أو ولو كان عدوه، يراه يتردى في النار على غفلة منه أو علم ثم لا يسارع لإنقاذه منها مهما كان متحجر القلب صخرى العاطفة؟ إن هذا شعور تمليه الحساسية الإنسانية، فكيف بعاطفة الإيمان التى هى مصدر الرحمة والرأفة والحنان. وإن ما يساق إليه سيئو الحظ من ضعفاء العقول: من أخذهم على غرة منهم، واستغلال ضعفهم وسوء حالهم لردهم عن دينهم، إنما هو شر يساقون إليه بأيد مجرمة انتزعت منها الرحمة إلى الإيقاع فى النار؛ فهل فى المؤمنين من يستهين بأخيه وولده فيرى من يسوقه إلى النار على غرة منه ثم لا تأخذه الشفقة لإنقاذه منها واستخلاصه من هذا العدو الجبار؟!

وإن من البلية أن يزعم أولئك المضلون أنهم مرشدون ويقولون عن أنفسهم إنهم مبشرون. ولو كانوا على بينة من أمرهم وعلى يقين من صحة دعوتهم ما عمدوا إلى اختلاس الضعفاء على غفلة من ذويهم وأهليهم، بل كانوا يعمدون

بالحجة والبينة ليدللوا على صحة أقوالهم، أو على الأقل على أنها ليست سخافة وحماقة. فصاحب الحق المتمسك بالحجة والبرهان لا يخشى المجادلة بالبرهان ولا يعمد إلى اختلاس الضعفاء والصبيان ولا يلجأ إلى تلك الوسائل الإجرامية: من تغرير وتعذيب، وتشويق الأطفال بقطع الحلوى، وخداع الشبان بأخس الوسائل الغرامية، واستغلال ضعف المرضى وضجرهم مما هم فيه. وإنها لفتنة لعن اللّه من أيقظها وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار. نسأل اللّه تعالى أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الكافرون. وصلى اللّه على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم.



- ٣ -

عن النعمان بن بشير - رضى الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلال بيّن والحرام بيّن وبينهما مشبّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع فى الشبهات كراع يرعى حول الحمى يوشك أن يواقعه، ألا وإن لكل ملك حمىً، ألا وإنّ حمى الله فى أرضه محارمُه، ألا وإنّ فى الجسد مضغةً إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد كله، ألا وهى القلب»

رواه البخارى

إن المرء الذى يجاهد نفسه لا يزال مترددا بين نفس أمارة بالسوء، نزاعة إلى الهوى، ونفس لوامة على التفريط، جاذبة إلى الخير، تواقة إلى التوفيق. أما النفس المطمئنة الراضية، فتلك نفس المخلصين الصديقين، والإنسان مهما قارف مشتهى أو شارف هوى، انطلق يتلمس لنفسه المعاذير، ويبحث لها عن مختلف التأويل، حرصا على أن يجمع لها بين الاستمتاع بما تهوى، والظفر بالنجاة من البلوى. وكيف لا وهو دائما بين هوى متغلب وعقل يردع، والعراك بين العقل والهوى لا يفتر، والمعركة لا تنتهى. وللعقل سلطان ولكنه كثيرا ما يغفو أو يلهو، والهوى يقظان مترقب للفرص ينتهزها، والإرادة بينهما كرة بين صوالجة.

وإن أكبر الخطر فى أعوان الهوى يرجع إلى التلبيس والتدليس، وتصوير العمل بغير صورته، وفهم الأمر على غير حقيقته. ولقد تجد الكثير من الأعمال جامعا لصفات عدة، كل صفة منها تلحقه بأصل من أصول الخير أو الشر غير ما تلحقه به الصفة الأخرى. وكل امرىء يقرأ من الكتاب الصفحة التى توافق غرضه. وهنا يجىء اختلاف الآراء وتباعد النزعات.

وقلّما يحصل العراك والنزاع بين قوى النفس المختلفة فيما استبان أمره من حلال خالص أو حرام محض. وإنما يجىء هذا

الـتـردد ، وتنشـب تـلك المعـركـة بـين القـوى النفـسـيـة خـيـرية وشـرية ، فـيـمـا اشـتـبـه من الأعـمـال ، وتـردد أمره بين الحـرام والحـلال . فـكان هذا الحـديـث الشـريـف نعم المرشـد ، وأقـوى العون على قهر الشيطان ، وسد باب الشر عن الإنسان .

والحـلال : مـا أذن فـيـه الشـارع ولم يمنع منه والحرام ضـده . وقـد ذكـر الأصـولـيـون أن الحـلال يتـناول الواجب والمندوب والمباح والمكروه ، والحرام خاص بالممنوع المحظور . وقيل : ليس المكروه من الحلال المذكور هنا ، بل هو من المشبهات .

و«بين» : أي ظاهر واضح لا يشتبه فيه .

وقـولـه : «وبينهـمـا مشـبـهـات» روى بتـشـديد البـاء مـفـتـوحـة ومكسـورة ، أى شـبـهـت بأمـرين مـخـتلفـين ، أو ألحـقـت نفـسـهـا بالأمـور المختلفـة المتعارضة في الحل والحرمة وروى : مـشـتـبـهـات ومتشابهات ، بمعنى مشكلات في أحكامـها ، لما فيها من وجوه الشـبـه بالأمـور المتـعـارضـة فـتـخـفـى على الـكثـيـر من الناس . والمتـشـابـه مـن الأمـور : المخـتلط النواحـى ، الذى يـتـعـسـر تمـيـيـز بعضه من بعض . ومنه قوله – تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَـٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾

[البقرة/ ٧٠]

أى اختلط فى صفاته، وأشبه بعضه بعضا، فلا ندرى ما الذى يراد ذبحه منه. ومثله المشتبه.

و«اتقى» من الوقاية وهى الحفظ، أى احتفظ من الوقوع فيها، و«استبرأ لدينه وعرضه» أى طلب البراءة لهما، أى عمل على تحصيلها، وسلك سبيلها. ومعنى ذلك أنه اجتهد فى نقاء دينه وعرضه، وسلامتهما من الثلم والخدش والانتقاص.

وقوله: «ومن وقع فى الشبهات» أى قارفها وانغمس فيها. والوقوع فى الشيء الانغماس فيه والتدهور فى جوانبه، وهو غير الإلمام البسيط.

وقوله: «كراعٍ يرعى حول الحمى» هو خبر قوله: ومن وقع فى الشبهات. وفى رواية مسلم: «ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى» الخ. والحمى: المحمى. وأصله أن ملوك العرب كانوا يحمون أماكن من المراعى يحظرون على غيرهم أن يرعى فيها، وينزلون العقاب بمن يرعى فيه، فخوطبوا بما يعهدون. على أن الحمى هو المكان المحمى المحتجز عن غير حاميه. ولا يكاد عظيم من ملك أو غيره يخلو من أن يكون له حمى، فلذا جاء «ألا وإن لكل ملك حمى» توطئة للتشبيه الآتى فى الجملة التالية. ومعنى أن

حمى الله محارمه، أنها هى التى منع الناس أن يرتعوا فيها، أو يقتحموها.

المعنى:

ومعنى الحديث أن الشيطان فى إغوائه للإنسان لا يكاد يأتى المؤمن من طريق صريح فى العصيان، فهو يداوره ويراوغه، ويزين له المبادىء، مخفيا عنه ما فيها من المفاسد والشرور. فأمر الحلال الصرف والحرام الصرف نهج واضح لا يشتبه على المؤمن المراقب لنفسه. ولكن الخوف كل الخوف هو فى أمور يحسبها المرء هينة، لما فيها من الانتساب إلى المباحات التى أحلها الشارع ورخص فيها، فيهون عليه مقارفتها، ثم يزين له الخوض والاسترسال فيها، ثم يغريه بالإكثار منها، حتى يستدرجه بعدها لما هو أشد منها، فإذا هو راتع فى الحرام منغمس فيه. والأمور يجر بعضها بعضا، ومعظم النار من مستصغر الشرر.

ولقد نجد بعض الناس يستهين مثلاً بشرب بعض الأنبذة التى لا يسكر قليلها، استنادا إلى أن بعض المجتهدين يرى أن غير الخمر لا يحرم منه إلا المقدار المسكر، وأما ما دونه فلا حرمة فيه، فيستدرجه ذلك إلى الزيادة، لأنه يرى استطابة هذا الذى شرب منه، والفصل بين المقدار المسكر وغير



المسكر مما يدق ويخفى. فهل ترى بعيدا أن ينزلق فى هاوية السكر ويتردى فيها وهو لا يشعر؟ وإنك لترى في الكثير من أنواع الترف أو اللهو المباح بأصله، أنه يجرّ إلى هاوية عميقة لا يشعر بها صاحبها إلا بعد أن يتردى فيها.

ومثال هذا من المعاملات ما يجرى من بعض الناس من المبايعات الآجلة بأثمان عالية، ثم يبيعها المشترى بثمن عاجل أقل مما اشترى، تحايلا على أن يجرى قرضا يجر نفعا، وهو عين الربا. ولا يجدى فيه أنه عمل صفقتى بيع كل منهما حلال فى ذاته. فمثل هذا إذا قال بعض الفقهاء فيه بالحل، فغير خاف ما فيه من التوصيل إلى الربا الممقوت، ولو من وراء ذلك الستر الشفاف، الذى لوفرض فيه أنه أخفى شيئا على الخلائق، فلا يصح الطمع فى أن يخفى على العليم الخبير، الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ومن ذا الذى يعقل أن الحكيم العليم يحرم على الناس أمرا لما فيه من المفاسد والشرور والمضار، ثم يفتح له باب الحل من طريق آخر لم تقتلع منه شروره ومفاسده؟ وعلى فرض أنه ليس بالحرام المحض لأن فيه بيعا على دورين وكل منهما حلال فى ذاته، فهل يخفى أن الانغماس فيه يجر إلى اختصار الطريق، والوقوع فى الربا المباشر، احتقارا لهذه المحاولات

والمماحكات التى لا تنطلى على أضعف العقول وأقصر الأفكار؟!

نعم: الحلال والحرام كل منهما بيّن واضح لا يلتبس فيه، وذاك هو ما جاء فى صريح النصوص الشرعية بعمومه أو خصوصه، كقوله تعالى:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ﴾

[المائدة / ٥]

وكقوله جل شأنه:

﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾

[الأعراف / ١٥٧]

وكقوله عز وجل:

﴿ ۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟
وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ
لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

[الأعراف / ٣١ ، ٣٣]

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ اللَّهِ ﴾

[البقرة / ١٧٣]

﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِالْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِى حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ﴾

[الأنعام / ١٥١]

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَٰنِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾

[المائدة / ٩٠]

﴿ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَوٰا ﴾

[البقرة / ٢٧٥]

وهكذا من الآيات الصريحة فى تحريم الحرام وتحليل الحلال . ومثلها الحديث الذى صح عن المصطفى ﷺ ، فإنه

واجب الطاعة بقوله تعالى :

﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾

[الحشر / ٧]

وأما ما لم يدخل دخولا صريحا فى النصوص الشرعية ، فإن كثيرا منه يتردد وجه الشبه فيه بين ما هو حلال بعمومه ، وبين ما هو حرام بعمومه ، فيخفى حكمه على كثير من الناس . وخفاؤه على الكثير لا يقتضى خفاءه على الجميع ، فقد يدرك حكمه الحقيقى من بذل الجهد فى تعرف أغلب الأشباه عليه ، فردّه إلى نصابه ، وألحقه بما هو الأشبه به ، وحينئذ يتضح حكمه ، ويتجلى أمره .

أما ما بقى على اشتباهه فالورع التحرر عنه ، والاحتياط لسلامة النفس من العقوبات البعد بها عن مواطن الشبهات . وحسبك منه أن كل ما فيه من خير إنما هو حظ عاجل زائل ، من حظوظ هذه الحياة الفانية . ولكن ما يعقبه من شر وويل ، سيكون جزاؤه عقابا جسيما ، وعذابا أليما ، لا سيما إذا تدهور فيه حتى جره إلى الوقوع فى المحظور ، وارتكاب الحرام البين ، كما هو الغالب فى متتبع اللذائذ والشهوات ، المنحدر



مع الهوى في أعمق المنحدرات. وقد روى:

«اجعلوابينكم وبين الحرام سترة من الحلال».

وقال بعض السلف: المكروه عقبةٌ بين العبد وبين الحرام، فمن استكثر من المكروه تطرق إلى الحرام، والمباح عقبة بين العبد وبين المكروه، فمن استكثر منه تطرق إلى المكروه. فاللائق بحال المؤمن الحريص على إيفاء حق العبودية ألا يجعل كل همه الانغماس والاسترسال فى الطيبات والملذات ولو مباحة. فأقل ما فى هذا تمكن الشهوات من نفسه، وغلبة اللذائذ على قلبه، فيتملكه الطغيان، ويأخذه البطر، وتقل منه همة الاشتغال بالنافع، حتى فى أمور دنياه. ولا تكاد تجد امرءاً حصر همه فى لذائذه ولو مباحة، وتملكه الرفه والنعيم، إلا وخارت قواه، وضعفت همته، وقلت حميته حتى فى المصالح التى تهمه، فما بالك بأمر الآخرة، وهو لا يكاد ينقاد إلا للنفوس اليقظة والأرواح الصافية، والقلوب النيرة؟ وهل يستقيم هذا لمن جعل همه فى نعيمه وترفه؟ ثم هل ينكر أن الانغماس فى هذه مدعاة إلى التكالب على الجمع، والتغالب فى أمر الكسب، من غير احتياط فيما حل وفيما حرم، فإذا ما انزلق فى هذا فقد خرّ إلى الهاوية، واستمرأ الغش والظلم، والكذب فى سبيل إحراز ما يريد من أمر الدنيا، فغلبته

شقوته، وكان رعيه حول الحمى مزلقة له آلت به إلى أن يقع فيه؟ نسأل الله السلامة فى ديننا ودنيانا.

يقول ﷺ بعد هذا: «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب». وهذا من الهداية إلى طريق العلاج، وبيان ما ينبغى للمرء أن يرقبه من نفسه، حتى يصلحه، فيصلح ما سواه تبعا له. فالقلب سلطان الجوارح، أو هو مبعث الإرادات، ومبدأ الميول. ومهما قيل فى أن مركز العقل الدماغ أو القلب، فلا ينكر أن العواطف والميول، والاستحسان والاستهجان - وهى مبدأ تكوين الإرادة - تستند إلى القلب أقوى استناد، بل كثير من الخواطر والهواجس كان الإنسان يشعر بأنه من وحى القلب وحديثه الخفى، وبخاصة ما لم يستند إلى التفكير والاستنباط، وهو ما نعرفه بأنه إلقاء فى الروع.

وإن للقلب صلاحا وفسادا بحسب ما يعتاد من الأعمال، حسنها وقبيحها، خيرها وشرها، فإن للاعتياد والمران أقوى تأثير فى صلاح القلب وفساده، فهو - مع أنه صاحب السلطان على الجوارح - تجده عرضة للتأثر بما يجرى عليها،



فيمرن ويرتاض بكثرة التكرار، حتى يصير الأمر فيه سجية: إن خيرا فخير، وإن شرا فشر.

واعتبر بما تراه من اعتياد الإنسان لبعض الأعمال التى يكرهها فى أول الأمر فلا يزال به التكرار حتى تنقلب الكراهية محبة، والاشمئزاز ألفة، بل يصير ما كان مكروها بغيضا ضربة لازب، يحاول المرء أن يتخلص منه فلا يستطيع. وهل أدل على ذلك من حال شارب التبغ مثلا؟ إنك لن ترى واحدا يشربه لأول عهده به إلا ويتضرر من رائحته وطعمه، ولكنه يغريه به المغريات: من حب تقليد، أو محاكاة من يعتقد فيه العظمة أو الظرف، فيتجرعه على كره، ولا يزال يعاوده حتى يخف اشمئزازه منه، ثم يتدرج إلى استطابته، وإذا هو بعد ذلك قد أصبح ولا غنى له عنه، ولا مفر له منه. أصبح مستطابا مستلذا، تميل إليه النفس، بل تراه من ضرورياتها ومقومات حياتها. وهل مصدر الاستطابة والميول إلا القلب؟ وهل يعتقد أنه بحاجة أو ضرورة إليه إلا القلب؟ فلو أنه حرص من أول أمره على مراقبة قلبه: فلم يدع العادة السيئة تتحكم فيه، فتقلب إرادته وميوله إلى السيئات، لما تحكم فيه، وأوحى إلى جوارحه ما يضره ويبطش بصحته وماله.

فـالقلـب من الجـوارح بمنـزلة السـلطان الآمـر الناهـى، وهى خاضـعة له أيما خضـوع. فمن شاء أن يصلـح جوارحـه ويحسن أعماله، فلينظر من أين يجيئها الفساد، فيقطع عليه الطريق، ومن أين يرجى لهـا الصـلاح، فيـصل ما بينهـا وبينه، حتى يتم له ما يريد من صـلاح حـاله وحسن أعـمالـه. وهذا هو القلـب، فـهو الذى إذا صلح صلح الجسـد كله وإذا فسـد فسد الجسـد كله.

نســأله جل شــأنه أن يصـلح قلوبنا، ويحسـن أعـمـالـنا، ويرزقنـا سـداد الرأى، وصـدق القـول، وثبـات اليـقيـن. والله المستعان.

-٥-

عن أبى هريرة رضى الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة، وشىء من الدلجة»

رواه البخارى.



اليسر : هو السهل التناول الذى لا عنت فيه ولا صعوبة ، والمشادة : المغالبة والمقاومة ، والسداد : التوسط فى الأمور ، ومجانبة الإفراط والتفريط ، والمقاربة : معناها عدم المغالاة فى الاستقصاء إلى غاية الشيء . وأبشروا : أى ارتقبوا من الله حسن المثوبة . والغدوة فى السفر : سير أول النهار وصبيحته ، والروحة : سير وقت الأصيل ، والدلجة : السير ليلاً ، أو فى وقت السحر خاصة .

قد يدفع الحذر الشديد بعض الناس إلى أن يغلو فى دينه ، ويتعمق فى عبادته ، فيكلف نفسه فوق ما تطيق ، فيصبر على ذلك ردحاً من الزمن ، ثم تفتر همته ، وتكل عزيمته ، ويقل نشاطه ، فيتراخى فى العمل ، ويخل بما التزم . ولو كان فى هذه الحالة واقفاً عند حد التقصير عن بعض النوافل لهان الأمر ، ولكن مثل هذا قل أن يصير إلى التراخى إلا عن سآمة وملال ، وانصراف نفس عن العبادة ، وقلة رغبة فيها . وهذا هو ماينبغى أن يحذر من الوقوع فيه .

فقوله ﷺ : «إن الدين يسر» معناه أن مبنى التكليف فى شريعتنا السمحة هو عدم الإرهاق ، والبعد عن

العنت ، وروحها هو الاحتفاظ بالإقبال على الله ، والرغبة فى الطاعة ، والحذر من كراهية العبادة أو سآمتها ، فإن ضرر ذلك يربو بكثير عما ينتظره من ثواب الاشتغال بالنوافل الكثيرة مدة وينقطع ، وإنك لتجد فى المتعارف بين الناس أن من يداوم مودة صديقه ويتردد عليه فى مواعيد معينة باستمرار ولو قليلاً ، خير ممن يلزمه يوماً أو أسبوعاً ثم ينقطع لا إلى رجعة . وقد ورد أن أحب الأعمال إليه أدومها .

وقوله ﷺ : «ولن يشاد الدين إلا غلبه» معناه : ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه ، كما فى رواية أخرى ، وهذه الجملة فى معنى التعليل المبين للحكمة المنطوية فى صدر الحديث : وكأنه يبين لنا أن الأمر بالرفق والتوسط ليس مبناه الزهد فى العبادة والرغبة عنها ، وإنما هو للمحافظة على النفوس من أن تفلت من مجال الخير ، وتحيد عن طريق السعادة ، فإن الشيء إذا زاد عن حده قد ينقلب إلى ضده . ومشادة الدين مغالبته والاستقصاء فى أعماله بغية الوصول إلى غايته . وإن المرء مهما بذل جهده فى التقرب إلى الله والقيام بشكره ، فهو البتة مقصر ، فإن توفيقه لهذا الشكر

نعمة تستدعى منه شكراً جديداً، ومهما راقب جلاله وعظمته، وجد نفسه فى مقام يتطلب منه تعظيماً وإجلالاً، وقياماً بحق العبودية، إن لم يكن خوفاً من عقابه، فحياء من جنابه، فأى نفس بشرية تستغرق فى هذا المقام وتدوم عليه منقطعة عما يلزمها فى شأن حياتها، فلابد أن ينصرف ولأن ينصرف على شوق إلى الرجوع لهذه الحظيرة القدسية، خير من أن ينصرف وقد ملكه الملل واستولت عليه السآمة.

وفى معنى هذا ما ورد: إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.. ومعنى متانة الدين أن أعمال طاعته غزيرة، وأبواب العبادة والزلفى فيه كثيرة، ومسالك الشكر على نعم الله الوفيرة طويلة، فعليكم من الأعمال ما تطيقون. ومعنى المنبت: الذى يكلف مطيته من السير فوق طاقتها، حتى تهلك منه وهو فى أثناء طريقه، فلو كان قد بقى لكان أسلم عاقبة له من الانقطاع وسط الطريق.

وغير خاف أن ذلك كله فى باب النوافل والمندوبات والقربات التى ليست من الفرائض، وإلا فالفرائض

التى فرضها لم يرخص فى تركها، إلا إذا عجز عنها العجز كله، على تفصيل معروف فى كتب الأحكام.

وقوله ﷺ: «فسددوا وقاربوا» كالنتيجة لما سبق من التعليم والتعليل له، والسداد: القصد والتوسط فى العمل، بالتجافى عن الإفراط والتفريط. ومعنى الأمر بالمقاربة: أن من تعاصى عليه بلوغ الدرجة الكاملة فليقاربها بلا إجهاد ولا كد. وقوله: «وأبشروا» أى بالثواب على العمل الدائم وإن كان قليلاً، ولا تستقلوا ما تعملون من الطاعات مع المداومة متى أديتم فروض الله وابتعدتم عن منهياته، كما ورد: «اتق المحارم تكن أعبد الناس» وإن البشارة فى هذا الموضع لتحمل النفوس على الرغبة فى المداومة والابتهاج بهذه المنزلة التى ضمن لها القبول مع سهولتها ويسرها. ومن ابتهج بما هو فيه واغتبط بحاله، كان جديراً بملازمته، ولا سيما إذا كان سهلاً هيناً.

وقوله ﷺ: «واستعينوا بالغدوة والروحة وشئ من الدلجة»: هذا من باب التمثيل، فإن الغدوة هى السير أول النهار كما قلنا، والروحة السير آخره، فكأنه مثل المؤمن فى هذه الحياة بالمسافر الذى يكد إلى بلوغ



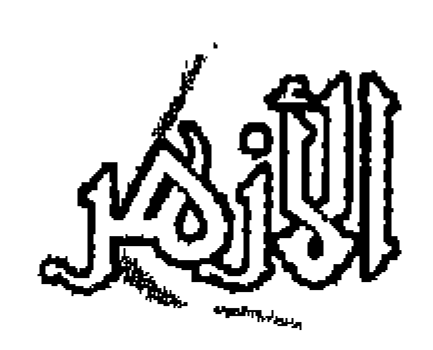
الغاية القصوى، وهى السعادة الخالدة، والفوز برضا ربه، ولا شك أن الدنيا طريق للآخرة، والمسافر ينبغى أن يتلمس فى سيره أوقات النشاط الذى يكسبه القوة فى سيره، فكأنه يقول: إنكم جادون فى السير إلى السعادة التى أعدت لكم، فالتمسوا أوقات النشاط، كما يعمد المسافر إلى اختيار وقت الغداة ووقت الأصيل للسير فيهما، حتى لا يهلكه الحر الشديد.

وقوله: «وشئ من الدلجة» مازال يلمح منه الرفق فى السير، فإن الدلجة هى السير ليلاً. وإن من سار كل الليل كلَّ لا محالة، أو من أخذ وقت السحر كله سيراً عرض نفسه للكلال كذلك. فلذا جاء فى جانب الدلجة. والكلام على كل حال من باب تمثيل السائر فى عمل دينه بالمسافر، فيؤمر بالرفق الذى يحسن أن يؤمر به المسافر.

وبعد: فهذا باب يختلف فيه الناس بحسب قوة إقبالهم على ربهم وشديد مراقبتهم لجلاله، بل يختلف فيه حال الشخص الواحد بحسب سنه، شباباً وشيخوخة، وبحسب تربية نفسه وتعويدها على يسير الطاعة، ليتدرج منها إلى عظيمها، والأساس قبل كل

شيء هو التنحى عن منهيات الله، والقيام بأوامره المحتومة، وأداء فرائضه تامة غير منقوصة. كما أن مراقبة المرء نفسه لينقيها من أدران المساوئ الباطنة من غل وحقد وحب الأذى للناس وغير ذلك من الأمراض النفسية، أمر هو فى الدرجة الأولى لمن يرغب فى إسعاد نفسه، وفوزها برضا الرحمن.

نسأله تعالى أن يمن علينا بالرحمة والرضوان، وأن يمنحنا التوفيق، ويجنبنا الخذلان، والله المستعان.



-٦-

قال ﷺ : (اتق المحارم تكن أعبد الناس، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس، وأحسن إلى جارك تكن مسلماً، وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمناً، ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب) رواه أحمد والترمذى والبيهقى.

هذا من جوامع الكلم وروائع الحكم، تضمّن شعبا كثيرة من الطرق الموصلة إلى السعادة الدنيوية والسعادة الأخروية، سعادة الفرد، وسعادة المجموع.

ولقد اشتمل على خمسة أوامر وثمارها، وما من ثمرة منها إلا وهى مطمح الأنظار ومتجه الأفكار.

الجملة الأولى «اتق المحارم تكن أعبد الناس» :

ما من امرىء مؤمن إلا وهو يتمنى أن يتاح له أعظم قسط من العبادة، ويحب أن يكون من أولى الزلفى عند الله، الحائزين لرضوانه، المشمولين برحمته وإحسانه، إلا أن النفس ملولة سئومة، إذا حملت قسطا كبيرا من النوافل انتهضت به حينا وفترت عنه أحيانا، وربما شاب فتورها شىء من الضجر والكراهية، فيكون ما لحقها من الضرر لتكرهها من العبادة أضعاف ما نالت من المثوبة بما أدت من النوافل. ومهما احتاط المرء لنفسه واستيقظ فى معالجتها وراقبها فى أطوارها، فهو عرضة فى بعض غفلاتها للاستراحة البتة، وقد يستمرئها فيركن إليها ويستطيبها، فإذا أراد قطع ذلك عليها أحس بعراك شديد بين عامل الطبع الحاضر وعامل الثواب العاجل. ومن ذا الذى يضمن أن يكون مالكا نفسه وضابطا زمامها يسيرها فى كل آن وفى كل حالة طبق ما يراد منها؟ اللهم إلا

من اصطفاهم الله من خيرة عبادة، وتولاهم بتوفيقه ورعايته، وقليل ماهم. ألا ترى إلى قوله جل شأنه :

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾

[سبأ/ ١٣]

وما يدريك فلعل بعض المكثرين من النوافل المستغرقين فيها أوقاتا كثيرة قد يتطرق إلى أحدهم من المنهيات النفسية الخفية ما تكون السلامة منه أكبر غنيمة.

أما إنه ليوجد فيهم من هو عرضة للعجب والعزة والاستكبار بما قام به من عبادة، ومنهم من ينقم على الناس أنهم لم يعرفوا له منزلته من الطاعة فيعطوه من الاحترام والتعظيم ما ينبغي لمثله، ومنهم من تميل نفسه إلى أن يعرف عنه مايقوم به فيدخل من الرياء في شغل شاغل. لانريد بذلك التنفير من إكثار النوافل والقربات على اختلاف أنواعها، فذلك ما لا يقدم عليه مؤمن معترف بما يطلب منه لربه من عظيم الشكر، وإنما نقول: إن الطريق المضمون السلامة والتوصيل الى الفلاح واكتساب رضا الله هو توطين النفس توطينا صادقا على اجتناب ما نهى الله عنه، خوفا من الله، وامتثالا له، فقد قال تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

[النازعات/ ٤٠ ، ٤١]

وقال جل شأنه :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾

[الرحمن/ ٤٦]

وليس بخافٍ على أحد أن من اتقاء المحارم أداء الواجبات والفرائض، فإن الإخلال بشيء مما أوجبه الله على عباده محرم يقينا، فمن ترك فرضا فرضه الله فليس بمتق المحارم. فكلمة «اتق المحارم» تشتمل على الأمر بأداء الواجبات واجتناب المنهيات. ومن قام بكليهما امتثالا لأمر ربه فقد أفلح ولو لم يأت معها بالتطوع، فقد جاء رجل الى رسول الله ﷺ يسأل عن الإسلام فقال ﷺ : خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال : هل عليّ غيرهن؟ قال : لا إلا أن تطوع، فقال رسول الله ﷺ : وصيام رمضان، فقال : هل عليّ غيره؟ فقال : لا إلا أن تطوع، وذكر له الزكاة، فقال : هل علّي غيرها؟ قال : لا إلا أن تطوع، فأدبر الرجل وهو يقول : لا أزيد على هذا ولا أنقص منه. فقال رسول الله ﷺ : أفلح إن صدق. وفي رواية : دخل الجنة إن صدق. وروى في حديث مثله : لئن صدق

ليدخلن الجنة. فهذا الوعد منه ﷺ مؤكدا بالقسم كما ترى فى الرواية الأخيرة، ومعبرا عنه بالفلاح فى الرواية الأولى، هو منتهى ما تسمو إليه نفس المؤمن. وإذا أضيف إليه الآيتان المتقدم ذكرهما وهما قوله تعالى :

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾

[الرحمن / ٤٦]

وقوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾

[النازعات / ٤٠ ، ٤١]

ازداد الأمر وضوحا، وازدادت النفس به يقينا واطمئنانا.

وبعد : فلا يذهب عليك أن كون تارك المنهيات أعبد الناس لا ينفى أن بين أفراده تفاوتا، فالتارك لها الذى يضم إلى تركه إكثار النوافل والقُرَب، يزيد على المقتصر على الترك بدون أن يضيف الى تركه إكثار النوافل؛ وإن كان كلا منهما فى العبادة أرقى ممن يقع فى بعض المنهيات أحيانا مهما أكثر من التطوع.

ثم إنك إذا نظرت الى روح العبادة. وثمرة التدين تجدها

متجلية فى كف النفس عن المناهى (ومن ضمن ذلك الكفّ القيامُ بأداء الفرائض على ما سبق) وتجليها فيها أكثر من تجليها فى الأوراد والأذكار والإكثار من القرب. ذلك أن روح العبادة وأثرها يظهران أتم ظهور فى ضبط النفس وإيقافها عند حدود الشرع. وتجد هذا المعنى فى الصبر عن المنهيات أشق وأصعب على النفس منه فى الإتيان بالقرب النافلة، فقد قالوا: الصبر صبران، صبر عن الشيء، وصبر على الشيء، وأشقهما أولهما، ذلك أن الصبر على الشيء فى الغالب محدود المدة قصيرها، وذلك ريثما ينتهى وقت ذلك الشيء؛ وأما الصبر عنه فهو دائم متجدد كلما سنحت فرصة. وإذا رجعت إلى مراقبة نفسك وجدت فيها مصداق ذلك، فقد يسهل أن تمضى معظم الليل فى صلاة وتسبيح وقراءة وذكر وأمثال ذلك وتطيقه حيث صممت عليه، ثم تبتلى النفس برغبة تملك عليها نواحيها، فيكون علاجها بكبحها عنها من أشق ما تقاسيه، وقد تصرفها عنها الآن فتعاودها الظروف مرة أخرى فإما غلبتها وإما غلبتك، ولئن ظننت أن الأمر سهل فى بعض المنهيات الظاهرة، فكم فيه من صعوبة فى أمراض النفوس الخفية ونزغاتها الشيطانية، وكم يجد المجاهد لنفسه من الصعوبات فى تنزيه نفسه من الأثرة وتحبيبها فى

الإيثار، ومن الغضاضة عليها فى فوات أمر كانت تبتغيه فيظفر به غيرها، والمرجع فى كل ذلك إلى التوفيق الإلهى والمعونة الربانية. نسأله عز شأنه أن يمنحها من ذلك حظا كبيرا.

الجملة الثانية قوله ﷺ : «وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس» :

ليس أشق على النفس وأشد إذلالاً لها من الفقر والحاجة. وقد استعاذ ﷺ فى دعائه من الفقر والعيلة. وجاء فى دعائه ﷺ : «اللهم اكفنى بحلالك عن حرامك، وأغننى بفضلك عمن سواك» ومن ذا الذى يتصور الفقر ولا يفزع إلى الله فى أن ينجيه منه ومن شره؟ إلا أن الفقر فقران : أحدهما فقر بفقد ما تدعو ضرورة الحياة إليه ولا تستطاع الحياة بدونه، وهذا لا لوم على المرء فى التخلص منه، بل يجب الجد فى السعى لسد الخلة وإصابة الرزق، فالتخلص منه بالسعى فى طلب الرزق من وجوه الحل مأمور به شرعا، قال تعالى :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾

[الجمعة / ١٠]

والثاني فقر بفوت رغائب النفس ومحابها التي تتطلع اليها، وهذا لا نهاية له، فمتى أولعت النفس بتحصيل محابها فهي مولعة دائما أبدا. ولله در القائل :

نروح ونغدو لحاجاتنا
تموت مع المرء حاجاته
وحاجات من عاش لاتنقضى
وتبقى له حاجة ما بقى

وقد ورد : «لو كان لابن آدم واد من ذهب لتمنى ثانيا، ولو كان له واديان لتمنى ثالثا، ولا يملأ عين ابن آدم إلا التراب، ويتوب الله على من تاب». هذا النوع هو المتعبة الكبرى، وهو باب البلاء، وموجب الشقاء في الآخرة والأولى. هذا هو الموقع في التهالك على حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة. هذا هو المنغص للحياة، المشقى للنفوس، المفوت للسعادة، الصارف للمرء عن شكر ربه. هذا مدعاة لاحتقار المرء نعمة ربه عليه، وذهاب نفسه حسرات على ما حرم منه، فإذا ما أحرزه هان أمره في نظره، وانصرفت نفسه عنه إلى إحراز ما فقده، وهكذا دواليك، فمن كان هذا شأنه فإن نفسه لاتستقر على حال من القلق، ولاينعم له بال بنعمة.

ومن الأساطير الخيالية ما يحكى ـ على طريقة ضرب المثل

ـ أن رجلا فقيرا كان يقتات بقطع الحجارة من الجبل، فمر عليه ملك بأبهته، فجاء الجند يدفعونه من طريق الملك بإزعاج واحتقار، فشق عليه ذلك، فدعا أن يكون ملكا ينحى الناس من طريقه ولا ينحي هو من طريق غيره، فلما استجيب له خرج يوما للصيد فغاظه حر الشمس حتى اضطر أن يتقيها بمظلة، فغاظه أن يغلبه شيء وهو في عزة ملكه، فتمنى أن يكون تلك الشمس التي تُتقى وهي لا تتقى شيئا، فكأنه تم له ذلك وإذا بالسحاب يمنع شعاعها أن ينفذ إلى ما أرسلت اليه، فلم يرقه ذلك وتمنى أن يكون السحاب الحاجب لا الشعاع المحجوب، فلما كان سحابا وجد الجبل يعترضه في سيره فيمزقه إربا ويفرقه شعبا، فتمنى أن يكون الجبلَ وإذا بالحجّار يتسلط عليه ويقطعه بفأسه، فطلب أن يعود هو ذلك الحجار.

فهلا ترى أماني الحياة على هذه الوتيرة، ما من أمنية إلا وهي مشوبة بنقص يكون قد استكمل في أخرى، ألا ترى كم يتمنى الأغنياء صحة الفقراء وابتهاجهم بمعيشتهم وغبطتهم بمرحهم ! ألا ترى أن التاجر ينظر الى ما فيه الموظف من ضمان المرتزق والخلوص من الفزع لمراقبة صعود الأسعار وهبوطها، مع ما هو فيه من عزة ونفوذ، وهذا يتمنى ما هو فيه من رزق مستور مبارك فيه ليس بمعدود ولا محدود، مع كفالة حريته



وتصرفه حسبما يريد لاحسبما يراد منه، وكلاهما يرى ما ينعم به الزارع من طلاقة جو وتقلب بين الخضرة والماء تحت أشعة الشمس الصافية، وهو يتمنى ما هما فيه من رفاهية ونعومة عيش! وهكذا ما من حالة إلا وفيها ما يرغب فيه وما يشتكى منه، وإذا قالوا: «إن الصحة تاج على رءوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى» فإن هذا القول منطبق على كل نعمة لايكاد يراها إلا من حرم منها، وقد يكون متمتعا بخير منها فيذهل عنه ويتطلع إليها، اللهم إلا من وفقه الله لشكر نعمته

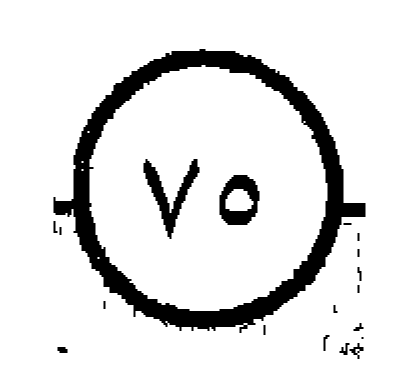
﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾

[سبأ/ ١٣]

ولقد جاءت هذه الجملة في الحديث الشريف تنير الطريق لمن يبتغي أن يكون سعيدا في حياته هنيئا في معيشته، فردت نفسه عن أطماعها، وأبانت أن إحراز كل الرغائب غاية لاتنال، وأن الغنى إنما هو في القناعة والرضا، فارض بما قسم الله تكن أغنى الناس.

الجملة الثالثة «وأحسن إلى جارك تكن مسلما»:

الجوار مظنة المنافسة، وطريق لتزاحم المصالح، ومؤد الى تعارض المنافع، والتدافع غالبا من احتكاك يولد الشر بين



المتجاورين ، وَمْنَ منّا لم يشهد ذلك ولو فى بعض الأحيان ، أو فى غيره من الناس المتجاورين إذا كان قد من الله عليه وعلى جيرانه بالسلامة مما ذكرنا ؟ ولكنه مع ذلك أمر لابد منه ولامفر عنه ، فقَلّ من الناس من يستطيع المعيشة منفردا منعزلا ؛ ثم لابد أن ينتظر فيه الجيران بعضهم من بعض معونة ومساعدة على مهام الحياة . وبهذا تحلو الحياة ، ويتفرغ كل من الجارين لعمله ، مؤتنسا بجاره مستندا إليه ، أو تمرد وتشفى ، وينشغل كل منهما بمراقبة الآخر والحذر من ضرره ، وإعمال المكايد للإيقاع به . وكم بين الحالين من تفاوت . فالجوار نعمة عظمى ، أو نقمة كبرى .

ولقد جاءت هذه الجملة تبين للناس طريق الخلوص من الشقاء والشرور ، وتنير طريق الانتفاع المتبادل بينهم . وليس أبلغ فى ذلك من فتح باب الإحسان والتراحم بينهم بعضهم مع بعض ، وجعل ذلك من موجبات الإسلام ومقتضيات الدين ، ومتى فتح باب الإحسان من جانبٍ تبعه المحبة من الجانب الآخر ، فقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها ، ومتى سادت المحبة بينهم فقد تم التعاون والتساند ، وأصبحوا كما جاء فى الحديث فى صفة المؤمنين أن مثلهم كَمَثل الجسد الواحد إذا اشتكى

منه عضو تداعى له سائر الأعضاء :

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم

فطالما استعبد الانسانَ إحسان

وإن الإحسان الى الجار لأبلغ من الإحسان الى غيره، لأنه يطفىء جمرة المنافسة، ويعطف المتقاربين فى الأماكن، حتى يكون بينهما اقتراب فى القلوب.

وحق الجار فى الإحسان زائد على ما تقتضيه الأخوة العامة بين المسلمين من الحقوق، فقد روى أن الجيران ثلاثة : جار له ثلاثة حقوق، وهو الجار المسلم ذو الرحم، وجار له حقان، وهو الجار المسلم، وجار له حق واحد، وهو الجار المشرك، وقد كان بعض الصالحين يبدأ فى الإحسان بجاره الكافر كأنه يخشى أن ينزلق إليه الشيطان بوسوسته، فيزين له الإعراض عنه لكفره، فيبدأ به سدا لطريق وسوسته، فإن إبليس يسلك للنفوس الخيرة من طريق التلبيس.

ولا يقتصر حق الجار على كف الأذى، بل منه احتمال أذاه ما أمكن، وإسداء الخير والمعروف إليه، وغض البصر عن عوراته، وألا يتجسس على أحواله، وألا يضايقه فى المرافق المشتركة، وأن يعود مرضاه، ويشاركه فى مسرته، وينعشه من صرعته، ولايغفل عن ملاحظة داره عند غيبته. ويتلطف

بولده فى الإرشاد والإيناس، ويرشده إلى ما يجمله فى أمر دينه ودنياه، وحسبك فى تحديد هذا ما رواه الإمام أحمد والطبرانى عن عبدالله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : سأل رجل النبى ﷺ : كيف لى أن أعلم إذا أحسنت أو أسأت؟ قال : «إذا سمعت جيرانك يقولون قد أحسنت فقد أحسنت، وإذا سمعتهم يقولون قد أسأت فقد أسأت» فانظر كيف جعل مقياس الإحسان والإساءة ما يتسمع عن المرء من جيرانه.

الجملة الرابعة «وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مؤمنا» :

ومعنى محبته للناس ما يحب لنفسه : أن يحب لهم إحراز الخير فى الدنيا والدين كما يحب لنفسه ذلك، وهذه المحبة تشمل كل الناس حتى الكافر، فيحب له أن يهتدى كما اهتدى، وأن يسعد كما سعد، فإن من أحب الكفر للكافر فقد كفر أو كان على خطر.

ولما كانت المحبة معنى فى القلب، وذلك يناسب الإيمان القلبى وكان الإحسان معنى عمليا، رتب الإسلام على الإحسان للجار فى الجملة السابقة، ورتب الايمان على المحبة فى هذه الجملة، وإن كان كل من الإسلام والإيمان لاينفرد عن الآخر فى نظر الشارع.



الجملة الخامسة قوله ﷺ : «ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب».

وهى حكمة عالية، وثمرة غالية، وزنت بميزان معتدل لا إفراط فيه ولا تفريط، فلم يُنه عن أصل الضحك بحيث يكون المرء دائم العبوس والانقباض، ولم يطلق سراحه بحيث يكون المرء ضُحَكة مهزارا، فذلك مما يؤدى الى الابتذال والإعراض عن المهام، واللهو عن الواجبات، وهو معنى موت القلب، كما أن دوام العبوس منفر مذهب للألفة بين الناس. ولقد كان ﷺ يضحك قليلا، وكان ضحكه التبسم؛ وكان يضحك حتى تبدو نواجذه. والمراد بعدم إكثار الضحك عدم كثرة مراته بحيث يصبح عادة وديدنا له، وعدم الإغراق فيه بحيث يخرج عن حد الوقار.

وترى التناسب بين هذه الجمل تاما من جهة أنها تشترك فى تحصيل السعادة للنفس، والراحة للقلب، والهناءة فى الحياة، والرضا فى المعيشة للفرد وللمجموع، فإن شعور النفس بإحرازها من العبادة قسطا وافرا مرضاة لها، وراحة لضميرها؛ وكذلك شعورها بالغنى وعدم الحاجة يوجب من ذلك حظا

عظيما . ولايخفى ما فى الإحسان للإنسان وحب الخير للغير من دواعي الغبطة وشمول المسرة وكمال الابتهاج. وهنا تشعر بجمال ارتباط الجملة الخامسة بتلك الجمل، إذ كانت كالحارس المنبه، لتحول بين النفوس وبين الإفراط فى المرح والمسرات، والاسترسال فى الضحك والمزاح، مما لايليق بهذه الحياة الدنيا والدين، التى ينبغى أن تكون حياة الجد والعمل، والتسابق الى إحراز الخير والفضل من شئون الدنيا والدين، نسأل الله ـ تعالى ـ أن يمن علينا بالسعادة فى الدنيا والآخرة، إنه قريب مجيب .

-٧-

الرسول ﷺ والتسامح

التسامح معنى فى النفس يرجع إلى طائفة من الأخلاق الكريمة والصفات الفاضلة، أو هو مظهرها وأثر من أعظم آثارها، وثمرة جليلة من أعز ثمارها، منها الحلم، والصبر والاحتمال، وسعة الصدر، والعفو عند المقدرة، والتواضع؛ ومنها السخاء، والجود، والعفة، وضبط النفس. وهذه الصفات على تقارب معنى بعضها من بعض، قد فرّق بينها علماء الأخلاق فروقاً ليس المقام متسعاً لشرحها، على أن معانيها فى الجملة غير خفية.

والتسامح على اتصاله بهذه المجموعة العظيمة من الأخلاق الكريمة، من أيمن الصفات الحميدة أثراً، وأجزلها فائدة، وأعودها بالخير على المجموع. يؤلف القلوب المتنافرة، ويقرب النفوس المتباعدة، ويهدى الأرواح الجامحة؛ فربّ كلمة طيبة فضت مشاكل وحلّت عقداً متعاصية الحل؛ ورب تسامح فى أمر قليل، حفظ من الوقوع فى خطر كبير وخطب جليل.

ولقد كان ﷺ فى الذروة العليا فى هذا الخلق الكريم، سواء فى معاملته الفردية أو فى مواقفه

الخطيرة الاجتماعية، ما لم تكن الحكمة السديدة فى المعاملة الشديدة، بل قد تجلى ذلك فيما أوحى اللّه به إليه من أحكام التشريع الذى جاء به رحمة للناس أجمعين. فما خيّر ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثما؛ وما انتقم لنفسه قط إلا أن تنتهك حرمة من حرمات اللّه فيغضب للّه أن تنتهك حرمته؛ وما عالج أمراً من الأمور الحيوية بشىء من الشدة إلا إذا تعينت واستحكم العناد والإباء فى نفوس من يعاندونه ويأبون قبول المصلحة لأنفسهم، أمثال أولئك الأغبياء الذين قالوا فيما قالوا:

﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

[الأنفال / ٣٢]

بدل أن يقولوا: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه الصراط المستقيم.

وإنّ استقصاء مظاهر التسامح منه ﷺ لا يكاد يتيسر لى فى هذه العجالة، إلا أن هذا لا يمنع من الإلمام

بما يحضرنى الآن من روائع الشواهد التى تعتبر المثل الأعلى فى هذا الباب، بل يصح أن تكون مضرب الأمثال.

فمن ذلك أنه ﷺ فى أول أمره حين اشتد أذى قريش له، عرض نفسه على القبائل ليحميه أحد منهم، فكان بعضهم يردّ ردًّا جميلاً، وبعضهم يغلظ فى الرد؛ ووصل الأمر بسفهاء بعض القبائل أن أتبعوا الرد بإغراء صبيانهم به عليه الصلاة والسلام فأدموا قدمه الشريف برمية حجر، فما زاد ﷺ على قوله: «اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون» أو «اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون» وروى ذلك عنه ﷺ فى وقعة أحد حين كسرت رباعيته ﷺ، وأدميت وجنته بدخول حلقة المغفر فيها.

فانظر إلى وقت اشتد فيه البأس وحمى وطيس الحرب، والنفس عادةً تستجمع أقوى ما عندها من غضب لتستعين به على حفز قواها لمناهضة خصمها، ويزيد فى ذلك ما تتحرك به القوة الغضبية حين وصول الأذى، انظر مع هذا كله تطيب نفسه، فبدل أن

يسكت عنهم أو يدعو عليهم، يدعو لهم بالمغفرة أو بالهداية على اختلاف الروايتين. والدعاء لهم إنما يصدر عن وفور الشفقة، ويسند تلك الشفقة بأنهم قومه؛ والالتفات إلى هذا إنما يكون عادة من الوسيط بين المتخاصمين لا من أحدهما بالنسبة إلى الآخر، ثم يعتذر عن فظيع عملهم ومقابلتهم دعوته إلى سعادتهم بمهاجمته ومقاتلته، يعتذر عنهم بأنهم لا يعلمون، والجاهل ينبغى أن يقبل منه العذر.

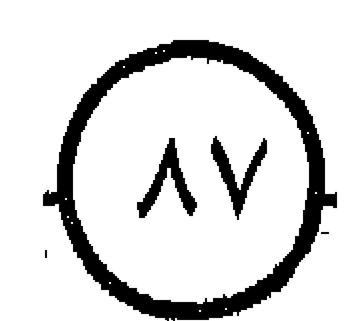
وانظر إلى ما روى فى صلح الحديبية حين قدم ﷺ مكة للنسك لا للحرب، والكعبةُ بيت اللّه الحرام لا يصدّ عنه ناسك، وقد ظهرت أمارات قدومهم للنسك لا للحرب، فأبوا عليه وصدوه عن بيت اللّه، فلما اقتنعوا بنيته تمادوا فى إبائهم وقالوا: «وليكن نسككم فى عام قابل» واتخذت هذه الواقعة فرصة مناسبة لعقد صلح بينه وبين المشركين على شروط اشتط فيها المشركون حتى قالوا: «من ذهب منا إليكم فعليكم أن تردوه لنا ومن جاء إلينا منكم فليس علينا رده» فتذمر المسلمون لهذا الشرط، فرضّاهم المصطفى ﷺ بأن من



ذهب منا إليهم فلا رده الله، ثقة بأنه لا يذهب إليهم أحد من المسلمين مرتداً، ومن جاء منهم إلينا ورددناه فسيجعل الله له فرجا. وقد كان هذا التسامح فى الشروط من أيمن التصرفات وأعودها بالخير على المجتمع، فقد وضعت الحرب بين الفريقين أوزارها، وأمن الناس على أنفسهم فانتقلوا بالمتاجر وغيرها، وأدّى ذلك إلى الاختلاط، فسماعِ الهدى منه ﷺ، فانشراحِ صدور للإسلام، وهداية كثير من الناس.

ولما ردّ ﷺ بعض المسلمين إليهم مراعاة للشروط التى بينه وبينهم صمد أولئك المسلمون الذين رُدّوا لعناد قريش وإلحاق الأذى بهم، غير مستندين إلى قوة إخوانهم المسلمين، بل مستقلين فى ذلك بأنفسهم، حتى فرج الله عن المسلمين، ونقضت قريش شروطها، فكان المسلمون بذلك فى حل من تلك الشروط؛ وجاء الفتح الذى به دخل الناس فى دين الله أفواجا.

ومما وقع فى هذه القصة أيضاً: تسامحه عليه السلام بحذف كلمة (رسول الله) حين تصلبوا وقالوا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك ولكن قل: محمد بن



عبدالله. فأبى كاتبه - عليه السلام - أن يمحوها، فمحاها ﷺ بنفسه، وأجابهم إلى طلبهم، ثقة بأن الله ناصره في النهاية، وقد كان.

وانظر إليه ﷺ يوم فتح مكة وقد دخلها وهى موطنه الذى أخرج منه قسراً فدخلها ظافرا، ولا تزال تلك الرءوس التى كانت تعمل على أذاه شامخة بعزها إلى هذا اليوم الذى قهرها الله فيه، فزاغت منهم الأبصار وظنوا أنه يوم هلاكهم، ولا شىء أدعى لليأس، من غلبة من كان مظلوما بالأمس، فجمعهم وقال: ما تقولون[1] أنى فاعل بكم؟ فقالوا استعطافاً لرحمته: «أخ كريم وابن أخ كريم» فقال عليه الصلاة والسلام: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» وقد كان أبو سفيان من أشد رءوس قريش عناداً وتعنتاً، وهو الذى ألّب عليه الأحزاب فغزوا المدينة؛ وهو الذى استنفر عليه قريشاً يوم بدر ويوم أُحد؛ وهو الذى كان منه من العناد ما كان، فأبى ﷺ إلا أن يستنزله عن عناده وكبريائه بأعظم تسامح: فبدأ بأن

---

(١) أى: ما تظنون.



نوه بشأنه، فنادى مناديه فيما نادى بقوله: «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن» ففتح ذلك باب الرجاء في نفس أبي سفيان. ولما جيء به إليه وهو رأس تلك الحوادث، لم يزده على أن قال له: «ألم يأن لك أن تشهد ألا إله إلا اللّه»، فاستلّ بهذا ما بقي في نفسه من غطرسة وعناد، وأسلم طائعاً غير مجروح العزة ولا فاقد الشمم، وكان في إسلامه وهو من عظماء قريش عزة للمسلمين.

ولقد روى أنه ﷺ كان نائماً في بعض الغزوات، فانسلّ إليه رجل من المشركين خلسة، واخترط سيفه وكان معلقاً بشجرة، واستيقظ ﷺ فرأى الرجل والسيف مصلت في يده، فقال له الرجل: من يمنعك مني الآن؟ فقال ﷺ: «اللّه» فوقع السيف من يد الرجل، فأخذه ﷺ وشهره عليه وقال: من يمنعك مني؟ فقال الرجل: كن خير آخذ يا محمد. فعفا عنه ﷺ، فأسلم الرجل.

ومن ذلك ما يروى أن رجلاً جبذه عليه السلام من ردائه وقال: أعطني يا محمد من مال اللّه فإنك لا تعطيني من مالك ولا من مال أبيك. وكانت الجبذة شديدة حتى أثّر طرف الرداء في عنقه ﷺ، فسكت

ﷺ ثم قال: المال مال اللّه وأنا عبده. ثم قال: «ويقاد منك يا أعرابى» فقال: لا، قال ولم؟ قال: لأنك لا تجزى بالسيئة السيئة. فضحك ﷺ وأمر أن يحمل له على بعير شعير وعلى آخر تمر.

وجاءه رجل يتقاضاه ديناً قبل أجله بثلاث، فأغلظ فى القول حتى قال له: أعطنى دينى إنكم يا بنى عبدالمطلب قوم مطل. فانتهره عمر وأغلظ له فى القول، فكفّه عنه ﷺ وقال له: «دعه يا عمر أنا وهو كنا إلى غير هذا أحوج منك: تأمره بحُسن التقاضى وتأمرنى بحُسن الأداء» وقضاه دينه، وزاده عشرين صاعاً دفعاً لترويع عمر إياه، مع أنه لم يكن حل أجله. فانظر إلى هذا الاحتمال مع أن الطلب بغير وجه حق، وإلى تعليمه عمر ما ينبغى أن يصنعه الرجل الذى يحضر خطاباً بين اثنين.

ولقد أسلم الرجل وقال: لقد رأيت فيه كل علائم النبوة إلا هاتين العلامتين: يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلماً، فعملت ما عملت لأتبينهما. ومثل ذلك ما روى أن رجلاً استعطاه ﷺ

فأعطاه، ثم سأله: أحسنتُ إليك يا أعرابى؟ فقال: لا، ولا أجملت. فغضب المسلمون، وقاموا إليه، فقال ﷺ: كفوا عنه وأعطاه حتى رضى، وقال أحسنت إليك يا أعرابى؟ قال: نعم فجزاك اللّه من أهلٍ وعشيرةٍ خيرا. فقال ﷺ: «إن مثلى ومثل هذا كمثل رجل له ناقة شردت منه فاتبعها الناس ليردوها عليه فلم يزيدوها إلا نفورا، فناداهم صاحبها خلّوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها وأعلم، فتوجه إليها وأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال وقتلتموه، دخل النار».

فانظر كيف يردف الخلق الحسن بشرح الثمرة المترتبة. واقرأ إن شئت قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾

[فصلت / ٣٤، ٣٥]

وبعد: فهل هذا ... غرب على من يقول اللّه له:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

[آل عمران / ١٥٩]

ويقول الله فى وصفه مخاطباً المؤمنين :

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

[آل عمران ١٥٩]

معاملته للمنافقين:

ولقد كان للمنافقين معه ﷺ حوادث يضيق لها صدر الحليم، وهم مستظلون بظله ومحتمون بحمايته، ومخالطون للمسلمين، يعلمون دخائلهم، ويفشون أسرارهم، ويصحبونهم فى غزواتهم لينهزموا فى وسط المعركة فينهزم المسلمون، أو لينصرفوا فى أثناء الطريق لينصرف معهم ضعفاء القلوب. وكان ﷺ عالماً بهم يطلعه الله على دخائل قلوبهم وذات صدورهم، ويشير عليه بعض الصحابة بقتلهم، وهو قادر على

إبادتهم، ومع ذلك ينهاهم عنهم ويقول: «لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه».

فانظر كيف يتحمل أذاهم مع هذه الصفات حتى لا يلعب الشيطان شيطان الإنس وشيطان الجن بعقول من يشاور نفسه فى الإسلام ويقول له مالك ولرجل يقتل أتباعه. وحسبك فى تمثل جرمهم. ما حكاه عز وجل عنهم فى قوله تعالى:

﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾

[المنافقون / ٧]

وقوله:

﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾

[المنافقون / ٨]

وابتكارهم لقصة الإفك.

تسامحه مع ضعفاء المؤمنين:

ويلتحق بذلك تسامحه مع حاطب بن أبى بلتعة حين عزم ﷺ على فتح مكة، وكان من كمال التدبير ألاّ يعلم القوم لكيلا يستعدّوا فتتسع دائرة الحرب وتراق دماء كثيرة، فعنّ لرجل من المسلمين أن يخطر القوم، فكتب لهم يعلمهم، وأعطى الكتاب لامرأة وضعته فى شعرها، فأعلمه الحق جل جلاله، فأرسل إليها من الصحابة من أدركها وانتزع الكتاب منها، فلما سأل حاطباً فى ذلك اعتذر بأن له لديهم مصالح خشى عليها منهم، فأراد أن يتخذ عندهم يداً ليحفظوه فى مصالحه، وهو مع ذلك عالم أن اللّه ناصره عليهم، فقبل ﷺ منه ذلك وعفا عنه. فكم فى هذا من تسامح فيما يعدّ اليوم خيانة كبرى يجازى عليها بالقتل.

التسامح فى الشريعة الغراء:

لقد استفاضت الدعوة إلى التسامح فى الشريعّة الغراء حتى سميت بحق الشريعة السمحة. اقرأ إن شئت قوله تعالى:



﴿ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

[البقرة / ٢٣٧]

﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن
يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

[النور / ٢٢]

﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ
عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

[آل عمران / ١٣٤]

صلى الله عليه وسلم صلاة تليق بمقامه الكريم وننتفع ببركتها فى يوم الدين، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.



الفهــــرس



المتن ٧٠ جم مستورد
الغلاف ١٥٠ جم كوشيه
شركة الإعلانات الشرقية دار الجمهورية للصحافة